رواء
مجلة فكرية دورية

- الغلو في فهم المقاصد وأثره في الانحراف الفكري
- كيف ظلمت الثقافةالمجتمعية الأرامل والمطلقات؟
- استراتيجية المراحل الثلاث في الإقناع للدعاة والمؤثرين
- إنها سنة .. فلماذا أفعلها؟

العقد الاجتماعي: هل يصلح حلاً لمشكلاتنا؟

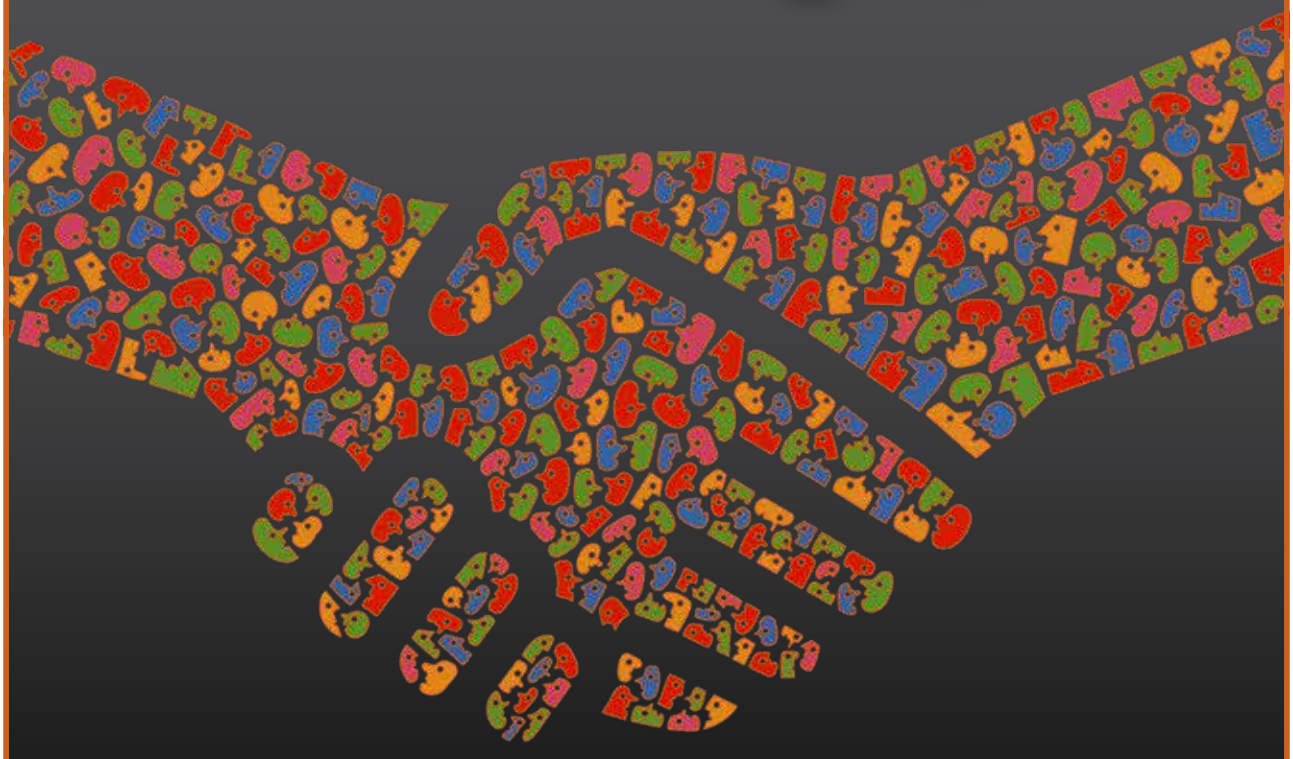

العدد الثاني عشر
جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ
كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢١

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

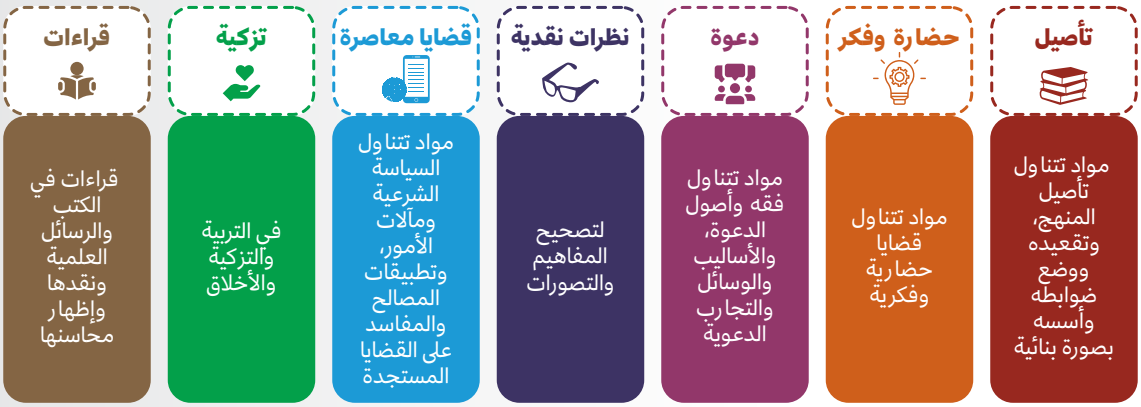

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

ما ينتظره المجتمع من أهل العلم ٢

العقد الاجتماعي: هل يصلح حلاً لمشكلاتنا؟ ٩
أ. ياسر المقداد

مراجعات مع «المعالم»لسيد قطب ١٦
د. محمد العبدة

كيف ظلمت الثقافة المجتمعية الأرامل والمطلقات؟ ٢٣
أ. كندة حواصلي

الغلو في فهم مقاصد الشريعة وأثره في الانحراف الفكري ٣٠
د. جمال الفرّا

استراتيجية المراحل الثلاث في الإقناع للدعاة والمؤثرين ٣٧
د. وائل الشيخ أمين

إنها سُنّةٌ .. فلماذا أفعلُها؟ ٤٤
أ.حسان الجاجة

الحقيقة العلمية وأثرها في الترجيح بين أقوال الفقهاء ٥٠
د. عبد الفتاح محفوظ

هل أصبح الإلحاد والشذوذ وجهات نظر بين شباب المسلمين؟! ٥٧
أ. رأفت صلاح الدين

قراءة في كتاب:
معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، للدكتور محمد عمارة ٦٢
أ. غسان أسود

بأقلام القراء ٧٠

ادخلوا عليهم الباب ٧٢
د.خير الله طالب

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشنات
motionat
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

ما ينتظره المجتمع من أهل العلم

مدخل:

كان العلمُ أول مزايا الإنسان ذِكرًا بعد الخلق وسجود الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وكان ردُّ الملائكة يوم أن وضعهم الله في اختبار اجتازه آدم عليه السلام ولم يجتازوه ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] إيذانًا بشرف العلم وأهله، وإشارةً إلى أنَّ صاحب العلم يفضُلُ على مَن سواه. والحقُّ أنَّ الإسلام لم يرفع مِن مكانة شيءٍ كما رفع من مكانة العلم وأهله، قال ابن كثير رحمه الله: «قَرَنَ شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام»[1].

وللعلماء فضلٌ عظيمٌ ومكانةٌ كبيرةٌ في الإسلام؛ فهم ورثة الأنبياء في الدعوة وتبليغ شرع الله، وبثِّ الخير في المجتمع؛ لذا أعطاهم الله تعالى هذه المكانة، وأوجب الرجوع إليهم وطاعتهم، فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٢].

ولا تقتصر وظيفة العلماء على الإفتاء والتدريس، وإن كانت أبرز أعمالهم، كما لا ينحصر عملهم في الإجابة على أسئلة الناس؛ فهم أولو أمر المؤمنين، وخلفاءُ الأنبياء في قيادة الأمة وتوجيهها، وهم ضمانةُ أمن المجتمع وسلامته واستقامته.

> **الناظر في حالِ أهل العلم اليوم يجدُ تراجعًا ظاهرًا في المكانة المجتمعية، وعزوفًا من الناس عنهم، كما نلحظ انخفاضًا لتوقّعات الجماهير منهم بالعموم، ولا شكَّ أنَّ لهذا التراجع أسبابًا خارجية تتعلَّق بتمكُّن الأعداء، لكن ينبغي الاعتراف بأنَّ جزءًا من الأسباب داخليٌّ محض**

والناظر في حالِ أهل العلم اليوم يجدُ تراجعًا ظاهرًا في المكانة المجتمعية، وعزوفًا من الناس

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٤).

عنهم وزهدًا فيهم، كما نلحظ انخفاضًا لتوقّعات الجماهير منهم بالعموم، بعد أن كانوا محطَّ أنظار العامّة وقمرة قيادتهم ومصدرَ إلهامهم ومحورَ الْتِفافهم. ولا شكَّ أنَّ لهذا التراجع أسبابًا خارجية تتعلَّق بتمكُّن الأعداء، وسيطرتهم على مقاليد القوى السياسية والعسكرية والمالية، وهيمنتهم على وسائل الإعلام ومناهج التعليم، لكن ينبغي الاعتراف بأنَّ جزءًا من الأسباب داخليٌّ محض، بل يمكن الجزم بأنَّ الأسباب الخارجية ما كانت لتؤثر بهذا القدر لولا الأسباب الداخلية والأخطاء الذاتية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

ضعف الربَّانية:

والمقصود هنا حصول تراجع لدى أهل العلم في تمثُّل رتبة (الربّانية) ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، والتي تشمل صفاتٍ كثيرةً على رأسها: تعظيم الله المفضي إلى زوال مراعاة الخلق في القلب، وحسن الإخلاص لله، وبلوغ الغاية في تحصيل العلم، وتربية الناس على صغار العلم قبل كباره، وتزكية النفس بالأعمال الصالحة. وهذه الصفات هي التي تزرع هيبة أهل العلم في قلوب الناس، وتعطيهم الاستحقاق والأهلية لقيادة الناس وريادتهم.

قال ابن جرير الطبري: «فالربَّانيون -إذًا- هم عِمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأَحْبَار» لأنَّ «الأَحْبَار» هم العلماء، و«الربَّانيُّ» الجامعُ إلى العلمِ والفقهِ البصرَ بالسياسةِ والتدبيرِ والقيامَ بأمورِ الرعيّة، وما يُصلحهم في دُنياهم ودينهم»[1].

> **لم يزل أهل العلم منذ القدم ينشدون الاستقلالية ويأبَون الخضوع لسلطان الحاكم ونفوذ أهل الدنيا، وقد وُقفت الكثير الأوقاف على المدارس ودور العلم لكفاية العلماء وحفظ استقلاليتهم المالية ونقاء لقمة عيشهم من المؤثِّرات والملوِّثات**

فقدان الاستقلالية:

لم يزل أهل العلم منذ القدم ينشدون الاستقلالية ويأبَون الخضوع لسلطان الحاكم ونفوذ أهل الدنيا، بل يَحذَرون من الدخول على السلطان خشيةً من تغيُّر نفوسهم ببهرج الدنيا التي يمتلكونها، وسطَّروا في ذلك الكتبَ والرسائل، بل قضى بعضهم نَحبَه ليصون استقلالية رأيه وحرّية فكره، فهذا أبو حنيفة رحمه الله امتنع عن الاستجابة لتعيينه في منصب قاضي القضاة، فحبسه المنصور إلى أن توفاه الله في السجن، ثم أرسل المنصور إلى سفيان الثوري رحمه الله يوليه القضاء، ففرَّ هاربًا من هذا المنصب وما زال يتنقل من بلدٍ إلى بلد، ويدعو الله أن يخلّصه من هذا الأمر حتى مات متخفيًا مبتعدًا عن الأعين.

وكان الغنيُّ من أهل العلم ينفق على فقيرهم ليحفظوا استقلاليتهم، ويُغنوهم عن أعطيات الحكام، فكان عبد الله بن المبارك رحمه الله يقول: «لولا خمسةٌ ما اتّجرتُ، ... سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السمَّاك، وإسماعيل بن عُلَيَّة»، فكان يتاجر لينفق عليهم، ولما ولي ابن عليَّة القضاء توقف عن صلته والإنفاق عليه حتى ترك[2].

وما وُقفت الأوقاف على المساجد والمدارس ودور العلم إلا لكفاية العلماء وحفظ استقلاليتهم المالية ونقاء لقمة عيشهم من المؤثِّرات والملوِّثات، ولإعانتِهم في أداء دورهم المجتمعي بالإشراف على الأوقاف وتوجيه ريعها في مصارفها المناسبة؛ لذا كان أهم ما قام به المستعمر ووكلاؤه من بعده مصادرة الأوقاف والتحكّم فيها؛ لنزع هذا السلاح المهمّ من أيديهم، وليصبحوا تابعين سائلين بعد أن كانوا مستقلين باذلين.

وكما أن الاستقلالية المالية مطلوبة وهي الأهم، فكذلك الاستقلالية من المؤثرات الإدارية والتنظيمية والاجتماعية، ومِن كلِّ ما يُمكن أن يعرض للمفتي ويشوِّش عليه وهو ينطق بكلمة الحق.

إرادة الدنيا والانشغال بها:

أهل العلم من جملة البشر ليسوا بمأمن من حبِّ الدنيا والعمل على حيازة نصيبٍ منها، ولا شكَّ أنّ ذلك ليس مذمومًا بإطلاق، فلا قيام للحياة ولا عمران ولا استخلاف دون مال، لكن المذموم هو تجيير بضاعة الآخرة لنيل بضاعة الدنيا.

---

(١) تفسير الطبري (٥٤٤/١).
(٢) تاريخ بغداد (٢٣٤/٦).

وإرادة الدنيا لا تقف عند طلب المال ووفرته، بل تتجاوز ذلك إلى أمور أخرى كالسعي للمنصب والجاه والشرف، قال ﷺ: (ما ذِئبانِ جائِعانِ أُرسِلَا في غَنَمٍ بأَفْسَدَ لها مِن حِرصِ المَرءِ على المالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ)[1]، ومثل ذلك تسنُّم مواقع التأثير والمنصات الجماهيرية، والسعي لجمع الحشود والمتابعين؛ بهدف الوصول إلى الشهرة، أو المكانة، أو نيل رضا السلطان والحظوة لديه.

والسعي لهذه الأمور يُذمُّ بقدر ما يُذهب من دِين العالم، وبقدر ما يُؤثر على تجرُّده للحقّ، وبقدر ما يَخشى على زوالها إذا أراد قول الحق.

الفرقة والخلاف:

نهى الله عن الفُرقة وأمر بتجنُّبها، وحثَّ على الاعتصام ووحدة الصف، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وما زالت النصوص الشرعية تدفع بالمسلمين نحو التحابِّ والتوادِّ والصلة والإحسان وأسبابها، وتُنفِّر الناس من التحاسُد والتباغض والتدابر والهجر وأنواع الأذى، وهي وإن كانت مذمومةً في حقِّ عموم الناس، فهي في حقِّ العلماء آكدُ وأشدُّ؛ فالعلماء في الناس متبوعون، فإذا تدابروا انقسم الناس، وهجر بعضهم بعضًا، وقد يحصل بينهم فتنٌ لا تُحمد عقباها، وتزداد الخطورة مع التحزُّب الحركي والانحياز لمؤثرات السياسة وتقلبات الحكم.

والمقصود بالخلاف هنا ليس الخلافَ العِلمي والنظر في الأحكام، بل اختلافُ القلوب والتباغض والتحاسد، وما أجمل صنيع الإمام الشافعي رحمه الله حيث فرَّق بين الأمرين، قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتَّفق في مسألة»[2].

الغفلة عن المهمّات في حياة الناس:

من أهل العلم من يُنجيه الله من المشوِّشات والملوِّثات، لكنك تجده منزويًا في التكايا والحِلَق، يتجنَّب الشأن العام ويُمسك عن الحديث فيه لحججٍ واهية متهالكة، مبتعدًا عن هموم الناس وقضاياهم، غير آبهٍ بما يتعرَّضون له من أحداث ومستجدَّات، ولا بما يُفسد عليهم دينهم ودنياهم، فتجده في أزمنة اجتياح الكفار لبلاد المسلمين منشغلاً بمسائل فرعية من فضول العلم والعبادات، ولا ينطق إلا بعموم الأذكار والمواعظ، فإذا أراد إنكار منكر تغاضى عن عظائم الأقوياء وتناول ذنوب الضعفاء، أو أنكر على الظالم شيئًا من صغار ذنوبه وترك طوامَّه وبلاياه، قال الشافعي: «إنَّ ابن عجلان أنكر على والي المدينة إِسْبَال الإزار يوم الجمعة على رؤوس الناس، فأمر بحبسه، فدخل ابن أبي ذئب على الوالي فشفع له وقال: إنّ ابن عجلان أحمق، يراك تأكل الحرام وتلبس الحرام وتفعل كذا فلا ينكره عليك، ثم ينكر عليك إسبال الإزرار؟! فَخَلِّ سبيلَه!»[3].

ولا شك أنَّ كل واحد من الناس يعرف مواطن قوَّته وضعفه، لكنَّ عهد الله على أهل العلم غليظ، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ومن جهة أخرى يُثبِّت الله عباده الذين يجاهدون في سبيله، ويرفع مقامهم عاليًا، وتشتدُّ الحاجة إلى التجاسُر والجرأة إذا خلت الساحة من المنكرين، وإذا يئس الناس من إيقاف ظلم الظالم وظنُّوا بأهل العلم وبدين الله سوءًا.

الانكفاء النخبوي:

مما يكثر في زمانا تشييد الأعمال المؤسسية -سواء كانت دعوية أو إغاثية أو سياسية أو إعلامية أو تجارية- ويكون على رأسها علماء أجلّاء؛ أرادوا بهذه الأعمال خدمة دين الله في باب أو أكثر من أبواب الخير، كإغاثة الفقراء والمنكوبين، وتعليم القرآن والسنة، وإصلاح ذات البين، وينفع الله بهم كثيرًا، وتكبُر هذه الأعمال وتتعقَّد، وينشغل بها العلماء المُشرفون عليها، فتنقطع دروسهم التي يخاطبون بها العامة، وتقلُّ متابعتهم لما يجري على الناس؛ فتزداد الفجوة فيما بين العالم ومجتمعه، حتى يصل به الحال أن إذا سُئل عن أمر شائع في المجتمع تفاجأ به! وإذا تكلم في أمر يراه مهمًّا لم يجد أذنًا صاغية! وما ذلك إلى لانكفائه عن المجتمع وقضاياه.

ومما يزيد هذا الانكفاء تطرّفًا: التقصير في التواصل بين أهل العلم، والتناصح فيما بينهم، والغفلة عن التوجيه القرآني ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) وأحمد (١٥٧٨٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/١٠).
(٣) مناقب الشافعي، للبيهقي، ص (٢١٨).

بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ومن آثاره الابتعاد عن الجماهير وتطلّعاتهم، والسباحة في جداول وأنهار آمنة، بينما يعاني الناس في دينهم ومعاشهم من الظلمة والمستبدين. وأسوأ مراحله أن يصل إلى التعالي على العامة وازدرائهم وخطابهم بما لا يليق[1].

> «وراثة العلماء للأنبياء ليست وراثة مكانة ومزايا فحسب، بل هي في حقيقتها وراثةٌ لسَمتهم وأخلاقهم، وأعبائهم وواجباتهم؛ فالمكانة التي اختصَّهم الله بها إنما جاءت مما كلَّفهم به من واجبات نحو أمَّتهم ومجتمعاتهم

ما ينتظره المجتمع من أهل العلم:

(العلماء ورثة الأنبياء)[2] وهذه الوراثة ليست وراثة مكانةٍ ومزايا فحسب، بل هي في حقيقتها وراثةٌ لسَمتهم وأخلاقهم، وأعبائهم وواجباتهم؛ فالمكانة التي اختصَّهم الله بها إنما جاءت مما كلَّفهم به من واجبات نحو أمَّتهم ومجتمعاتهم، بل الأمران مرتبطان فيما بينهما فلا تحصل وراثة المكانة إلّا بوراثة الواجبات والمهام، وإلى جانب الواجبات الشرعية المنوطة بأهل العلم ثمَّة ما ينتظره الناس منهم على الصعيد التربوي والمجتمعي. ومن ذلك:

القرب من الناس والانتماء لهم:

على العالم أن يكون قريبًا من الناس منتميًا لهم، يشعرون بأنه منهم، وهذا ديدن الأنبياء، فالله تعالى امتنَّ على المؤمنين بأنه ﴿بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي واحدًا منهم؛ ليتمكَّنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، أما العزلة عن الناس فإنّها تورث النفرة والبعد، وتمنع العالم من فهم مجتمعه ومشاكله، وتمنع المجتمع من الاستفادة منه.

ومن صور القرب والانتماء: أن يعيش العالم مع الناس وأن يكون مثلهم في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، ويخالطهم ويشاركهم همومهم وحياتهم، ولا يتميز عنهم بشيء؛ فهذا أصدق لدعوته وأدعى لقبول كلامه، ولما عاب المشركون على النبي ﷺ أنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾

(١) تراجع مقالة (انكفاء النخب) للأستاذ وليد الرفاعي، في العدد السادس من مجلة رواء.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢).

[الفرقان: ٧]، ردّ الله عليهم بأنّ هذه صفات سائر الأنبياء قبله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. يريد بذلك: أنّهم مثل الناس، ويعيشون معهم، ويخالطونهم، ولا يتميّزون عنهم بأسلوب حياة ولا مزيد نعيم، ويكابدون الحياة مثلهم، ويقفون على أوضاعهم وأحوالهم، ويُعايشون مشاكلهم ويسمعون منهم؛ فيُعلّمونهم ويُبيّنون لهم، فيَلقَى كلامُهم وبيانُهم القبولَ والرضى.

وهذا يقتضي بالضرورة التواضعَ للناس ولينَ الجانب لهم، وعدمَ التكبُّر عليهم بخطاب أو تصرُّف أو نظرة، قال تعالى ممتنًا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

السعي في قضاء حوائج الناس:

مَن كانت مكانته في مقام وراثة النبوة فحقٌّ عليه أن يهتمَّ بقضايا المسلمين ومشاكلهم، ويسعى في قضاء حوائجهم دينيةً كانت أو دنيوية، فعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبُّ الناس إلى الله أنفعُهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سُرُورٌ تُدْخِلُه على مسلم، أو تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً، أو تَقْضِي عنه دَيْنًا، أو تَطْرُدُ عنه جُوعًا، ولأن أمشيَ مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكفَ في هذا المسجد شهرًا)[1]، والعالِم مع هذا شفيقٌ بالناس حريصٌ عليهم يريدُ لهم الخير، ويتصدَّى لدفع المظالم والمكوس عنهم، ولا يحرِّج عليهم بالتشدُّد والتعسير، وهذا من تحقيق الولاء والتكافل والتضامن بين المسلمين، وخاصةً مع عجز وتقاعُس المؤسسات الرسمية والسياسية.

> **ليس من الصبر المشروع في حق أهل العلم: كثرةُ التشكّي والتأفف من واقع الناس وتصرّفاتهم وردود أفعاهم، أو تصوير كلّ معارضة أو مناقشة يقومون بها أنّها عِداءٌ أو موقف من الدين نفسه، ومن ثمَّ التعامل معهم على هذا الأساس**

التحمُّل والصبر:

كما أمر الله نبيه ﷺ بالصبر ﴿اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فكذلك يكون العلماء ورثةً للأنبياء في الصبر، فيصبرُ العالم على الناس ومعهم، ويتّسع صدرُه لهم، ويستمعُ إليهم، ويصبرُ في دعوتهم ولا يستعجل استجابتهم له، ويصبر على ما يمكن أن يصل له من أذى بالكلام أو الفعل ردًا على دعوته أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، ويصبر على ما يمكن أن يقع له من محنٍ وابتلاءات في طريق دعوته، ويصبر على أخطائهم الدينية والدنيوية، وغير ذلك.

قال لقمان في وصيته لابنه، مبيِّنًا له أنّ الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج إلى صبر: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وليس من الصبر: كثرةُ التشكّي والتأفف من واقع الناس وتصرّفاتهم وردود أفعاهم، أو تصوير كلّ معارضة أو مناقشة يقومون بها أنّها عِداءٌ أو موقف من الدين نفسه، ومن ثمَّ التعامل معهم على هذا الأساس.

ومما يدخل في الصبر: تعليم الصبر للآخرين؛ بعلاج ما قد يغشى النفوسَ من يأسٍ وقنوط بسبب طول الطريق أو كثرة التضحيات، أو استعجال بلوغ الهدف، أو الفُرقة والوَهن الذي تعيشه الأمة، وزرع الأمل، مهما كانت التحدّيات والمعوّقات، دون تكلُّف ولا تعلُّق بالأوهام. فقد كان ﷺ يُحيي الأمل في نفوس أصحابه في سائر الأوقات -خاصة أوقات المحن- ويحثُّهم على الثبات على الحق، والصبر، مع الاستمرار في العمل، والتوكل على الله تعالى والثقة به.

القدوة الحسنة:

العالِم إذا كان قدوةً حسنةً في أهله، ونموذجًا حيًّا صادقًا، وتطبيقًا عمليًا لما يدعو إليه؛ فستدعو أفعاله وسيرته إلى ما يدعو إليه لسانه، وهذا أدعى لتصديقه والاقتداءِ به، وقد جعل الله رسولَه ﷺ قدوةً لنا فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. أمّا إنْ خالف فعلُ العالم قولَه، فهذا يُفهم أنه عدم صدق منه فيما ما يدعو إليه، أو عدم إيمانه به، مما يؤدّي لتكذيبه، وانفضاض الناس عنه.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٠٢٦).

ما ينتظره المجتمع من أهل العلم

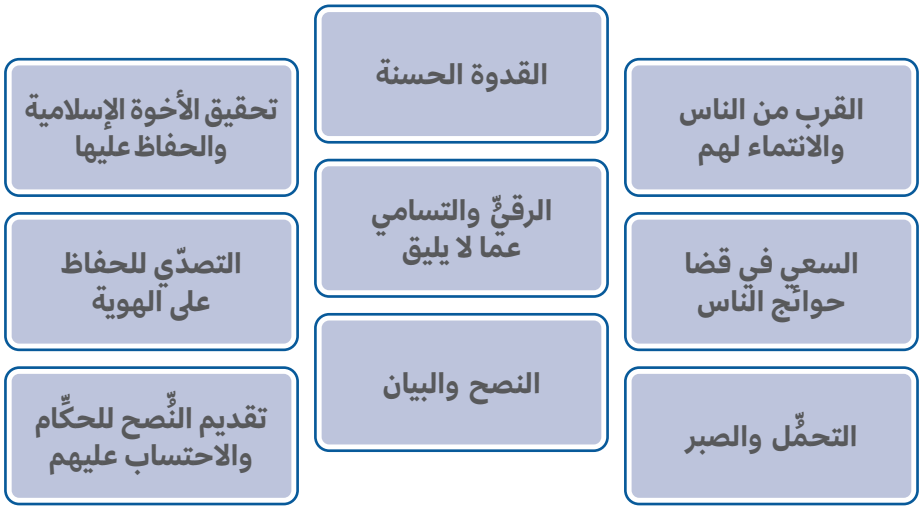

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «إنَّ المفتي إذا أَمَرَ بالصمت -مثلاً- عمّا لا يعني، فإن كان صامتًا عما لا يعني ففتواه صادقة، وإن كان من الخائضين فيما لا يعني فهي غير صادقة... وإن دلَّك على المحافظة على الصلاة وكان محافظًا عليها صدقت فتياه،... ومثلها النواهي، فإذا نهى عن النظر إلى الأجنبيات من النساء وكان في نفسه منتهيًا عنها صدقت فتياه،... وما أشبه ذلك، فهو الصادق الفتيا والذي يُقتدى بقوله ويُقتدى بفعله، وإلا فلا؛ لأنَّ علامة صدق القول مطابقةُ الفعل، بل هو الصدق في الحقيقة عند العلماء، ولذلك قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]،... وحَسْبُ الناظر في ذلك سيِّدُ البشر ﷺ، حيث كانت أفعاله مع أقواله على الوِفاق والتمام»[1].

الرقيُّ والتسامي عما لا يليق:

على العالم أن يترفَّع عما لا يليق من الأخلاق والسلوك والتعامل، والابتعاد عن مواطن الزلل؛ لأنَّه محطُّ أنظار الناس، خُطوته محسوبة، وتصرفاته مراقبة، والآمال معقودة عليه، فينبغي أن يَزن كلَّ تصرُّفٍ أو قولٍ بناءً على ذلك، ولا يكتفي بالابتعاد عن المحرَّمات، بل عن كلِّ ما يخدش شخصيته وسلوكه، حتى لا يُعرِّض نفسه للتهمة، ويوقع الناس في سوء الظن أو الوقيعة به.

> **على العالم أن يترفَّع عما لا يليق من الأخلاق والسلوك والتعامل، والابتعاد عن مواطن الزلل؛ لأنَّه محطُّ أنظار الناس، والآمال معقودة عليه، فينبغي أن يَزن كلَّ تصرُّفٍ أو قولٍ بناءً على ذلك، حتى لا يُعرِّض نفسه للتهمة، ويوقع الناس في سوء الظن أو الوقيعة به**

وقد كان ﷺ يتجنَّب مواضع التُّهم، وما يثير الريبة، ومن ذلك أنّه لـمّا خرج من المسجد بصحبة زوجته صفية ﵂ وكان الوقت ليلاً، ومرَّ به صحابيان؛ فلما رأياه أسرعا المشي، فقال: (على رِسلكما، إنَّها صفية بنت حيي) فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال: (إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدمَ مجرى الدم، وإني خشيت أن يَقذفَ في قُلوبكما شرًا، أو قال: شيئًا)[2].

(١) الموافقات، للشاطبي (٥/٢٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٥) ومسلم (٢١٧٥) واللفظ له.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنةُ الأعين)[١]، أي ما كان له أن يومئ بعينه فإنَّ هذا مما لا ينبغي للنبيّ.

النصح والبيان:

وباب النصح والبيان واسع، فيشمل كلّ ما يحتاج الناس إليه في المسائل العلمية، والفكرية، والسياسية، وتوضيح مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ، وبيان الأحكام الشرعية التي يحتاجها الناس في مختلف شؤون حياتهم، وتعليمهم وإفتائهم لاسيما عند النوازل التي تتجدد، ويدخل في ذلك نشر العلم ومجالسه، والجلوس لتعليم الناس، مما يؤدي إلى رفع الجهل وحماية المجتمع من الانحراف، وقد كتب عمر بن عبدالعزيز في خلافته إلى أبي بكر بن حزم –واليه على المدينة– يقول له: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفتُ دروس العلم -أي ذهابه- وذهاب العلماء، وليُفشوا العلم وليجلسوا، حتى يعلم من لا يعلم فإنَّ العلمَ لا يهلك حتى يكون سرًا»[٢].

تحقيق الأخوة الإسلامية، والحفاظ عليها:

ويكون ذلك بالبعدِ عن كلّ ما مِن شأنه أن يُفسد بين المسلمين أو يُضعف صفَّهم. والمسارعة عند وقوع شيءٍ من ذلك للإصلاح ولَأْمِ الصفّ، وأن يكون العالم قدوة بذلك كله. ومما يُسهم في ذلك: البعد عن التحزّب والتعصب، والتعامل مع المخالفين بخُلُق وأدب، وترشيد العمل الدعوي والإسلامي، وعلاج أسباب التفرق بين مكوناته.

> **أوّل مَن تتوجه إليه الأنظار والقلوب للتصدّي لأخطار الدعوات والمشاريع الرامية إلى تغيير هوية البلاد بفرض العَلْمانية عليها، وتغيير هوية الشعوب بتحريف فطرتها وتضييع دينها، هم ورثة الأنبياء؛ فهم حصن الأمّة وخطُّ دفاعها**

التصدّي للحفاظ على الهوية:

إنَّ مما ابتُليت به المجتمعات في هذا الزمان كثرة الدعوات والمشاريع الرامية إلى تغيير هوية البلاد بفرض العَلْمانية عليها، وتغيير هوية الشعوب بتحريف فطرتها وتضييع دينها، وإخراج شبابها وفتياتها من نور الإسلام وهديه إلى ظُلمة المذاهب الفكرية المنحرفة الضالّة، وإنَّ أوّل مَن تتوجه إليهم الأنظار والقلوب للتصدّي لهذه الأخطار: ورثة الأنبياء؛ فهم حصن الأمّة وخطُّ دفاعها.

ومما يدخل في هذا الباب: الإجابة عن الشبهات التي يُثيرها المنحرفون عن الحق، وأصحاب المذاهب الهدّامة، قيامًا بواجب النصح للدين والمسلمين، وحمايةً للعقول والأديان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وهذا من جهاد الحجّة والبيان.

تقديم النُّصح للحكّام والمسؤولين والاحتساب عليهم:

وبالأخصّ الظلمة منهم والمتجاوزون لحدود الله؛ قال ﷺ: (إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تودع منهم)[٣]، وعن العرس بن عميرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانَيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك، عذب الله الخاصة والعامة)[٤]. والاحتساب على الظالمين من أعظم الجهاد؛ قال ﷺ: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[٥].

وفي الختام:

على أهل العلم أن يُدركوا حجم الأمانة الملقاة على عاتقهم، وعظم المسؤولية التي يحملونها، والغُنم الذي يحصل بالعلم إنما يأتي بغُرمه وتبعاته، فمن لم يتحمَّلها لا يحصُلُ على المكانة التي وضعها الله للعلم والعلماء، بل وصف الله الذين حُمِّلوا الكتاب ثم لم يحملوه، والذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها بأوصافٍ لا يُحسد عليها إنسان.

وبقدر حفظ أهل العلم لمكانتهم وأدائهم لواجباتهم تكون مكانتهم عند الناس، ورحم الله القاضي عبد العزيز الجرجاني إذ قال:

وَلوْ أنَّ أهْلَ العِلمِ صانُوهُ صانهُمْ
وَلَوْ عظَّموه في النفوس لَعُظِّما

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣).
(٢) أخرجه البخاري عقب الحديث (٩٩).
(٣) أخرجه أحمد (٦٥٢١).
(٤) أخرجه أحمد (١٧٧٢٠).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٨٨٤).

العقد الاجتماعي: هل يصلح حلاً لمشكلاتنا؟

أ. ياسر المقداد (*)

تشهد السنوات الأخيرة محاولات هنا وهناك لصياغة عقد اجتماعي لبعض بلدان الربيع العربي، باعتباره ضرورة ملحةً للحالة السياسية التي تمرُّ بها هذه البلدان، وفي أثناء ذلك تكثر التساؤلات: ما هو العقد الاجتماعي؟ وكيف نشأ؟ وهل كان مفيدًا في سياق نشأته؟ وما الغاية منه؟ وهل نحن بحاجة للعقد الاجتماعي لحل مشكلاتنا؟ تجيب هذه المقالة عن ذلك بشيء من التفصيل.

مدخل:

عندما تسود الفوضى والتنازع وتصادُمُ المصالح الخاصة إثر عقودٍ طويلة من الاستبداد، يُبرز الحديث عن ضرورة تنظيم المجتمع ضمن إطار يؤسِّس لتفاهُم مكوِّناته بتغليب المصلحة العامة وتوضيح وتحديد العلاقات بين المجتمع والسلطة السياسية، وهذا ما يُفسِّر ارتفاع الأصوات واتِّساع الدعوات لوضع محدداتٍ ميثاق أو اتفاق اجتماعيٍّ في البلدان التي تسودها تلك الحالة، حيث يكون التخوّفُ من تصاعد الحال التصادمية وتكرار تجارب الاستبداد حاضرًا بقوة لدى العقلاء.

هذه الحالة كانت البذرة الرئيسية لظهور ما يعرف بنظرية «العقد الاجتماعي» في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، حيث وُلدت النظرية من رحم معاناة قاسية على مدى عدّة قرون من الاستبداد في القرون الوسطى (عصور الظلام)، حيث كان تفسير نشأة الدولة والسلطة يقوم على أساس ديني ولّد ما يسمى بنظرية الحق الإلهي أو نظرية السّيفين تبرر حكم الحكام باسم الإله، وترفعهم فوق أي مساءلة، مما اضطرَّ المفكِّرين لابتكار حلولٍ تُخرجهم من هذه الحالة، وإيجاد تفسير لأساس الدولة والسلطة غير الأساس الديني.

العقد الاجتماعي - تعريف ونشأة:

يمكن تعريف «نظرية العقد الاجتماعي» بأنَّها نظرية تفسِّر قيام الدولة بناءً على تنازل الأفراد عن حقوقهم[1] لصالح الإرادة العامة التي هي

(*) ماجستير في أصول الفقه، له عدّة إسهامات في التأليف والتحقيق.

(١) المقصود بالحقوق هنا جميع الحقوق الأساسية وغيرها حسب رؤية «جاك روسو»، وهو يتفق بهذا مع «هوبز»، بينما يرى «جون لوك» أن الحقوق التي يتنازل عنها الأفراد ليست مطلقة بل تقتصر على القدر اللازم لإقامة السلطة والمحافظة على حقوق الجميع، لذا فهو يستثني منها الحقوق الأساسية (الحياة، الحرية، التملك)، ويبرر «روسو» رؤيته بأن تنازل الأفراد عن حقوقهم لا يفقدهم حرياتهم لأنهم يستعيضون عنها بحريات وحقوق مدنية تقررها لهم الجماعة المدنية.

مجموعهم، ومن خلال هذا التنازل تتشكل السيادة العامة أو جسم السلطة الذي يعبِّر عن الصالح العام. هذا ما يسمى بالعقد أو الميثاق الاجتماعي، ووفق هذا العقد تتمتع هذه الدولة -السلطة- بالصلاحيات وتؤسس مبادئ القانون لحماية المصلحة العامة، ويكون الشعب هنا هو الأساس أو مصدر الشرعية للدولة[١].

"وُلدت نظرية العقد الاجتماعي في أوربا من رحم معاناة قاسية عانتها الشعوب على مدى عدّة قرون من استبداد القرون الوسطى والتي حرمتهم من أقل حقوقهم ورفعت الحكام فوق أي مساءلة"

وقد برزت هذه النظرية أول أمرها على يد الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز سنة (١٦٧٩م) وتقوم نظريته على اعتبار الحالة الطبيعية للإنسان الأنانية والشر، مما يُفضي إلى حالة الفوضى والحرب، فالإنسان للإنسان كالذئب، وتكون الحالة الطبيعية «حرب الكل ضد الكل»[٢]، ولا سبيل للخروج من هذه الحال إلا بأن يتنازل الجميع عن جميع حقوقهم الطبيعية لآخرَ يحكمهم لينهي حالة الفوضى ويحقق الأمان للجميع، ثم بعد ذلك ليس لهم أن يُنازعوه أو يثوروا عليه، فهو ليس طرفًا في العقد وهم قد تنازلوا عن حقوقهم بالكامل، وبهذا يؤسس «هوبز» لسلطة مطلقة لا تُنازَع حتى لو انحرفت؛ معللاً ذلك بأنه خير من العودة إلى حالة الهمجية[٣].

ثم كان التطوير الثاني للنظرية على يد جون لوك (١٧٠٤م) حيث لم يتبنَّ فكرة هوبز في أنَّ الشر هو أصل الحالة البشرية، بل قرَّر أن الأفراد في أصل حالتهم الطبيعية كانوا يعيشون بسلام ومساواة[٤]، ويتمتَّعون بحقوقهم الفردية والملكية الخاصة، لكنهم في سعيهم لذلك ومع ظهور العلاقات الاقتصادية والتنافس يحصل الاختلاف مما يدفعهم لضرورة التنازل عن جزء من حقوقهم لطرف آخر فتتشكل السلطة، ولهم أن ينازعوها ويثوروا عليها إذا لم تحافظ على حقوقهم الطبيعية[٥].

ثم أتى التطوير الثالث على يد الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧٧٨م) حيث أسس لنظرية حقوقية وقانونية كاملة تجاوزت إشكالات من قبله، فهو وإن أخذ ممن قبله مفهوم العقد أو الميثاق الاجتماعي لكنّ تنظيره للحالة الطبيعية للإنسان والانتقال منها إلى الحالة الاصطناعية -كما يسمِّيها- وتأصيله لكيفية الوصول إلى الإرادة العامة والخروج من تصادم الإرادات الجزئية لتتحقق المصلحة العامة، وكذلك مفهوم الحريات والمواطنة، جعل طرحه المرجعيةَ النظرية لتفسير مسألة الدولة الحديثة وأساس نشأتها والمفاهيم الرئيسية المرتبطة بها، ومبادئ العمل السياسي في أوروبا منذ القرن الثامن عشر.

اعتبر روسو الحالة الطبيعية السابقة للبشر الحرية والمساواة[٦]، ولكنَّهم في سعيهم لتحقيق مصالحهم الخاصة يقعون في التنازع بما قد يُهدِّدهم جميعًا، ولا سبيل للخروج من تلك الحالة البدائية إلا بتنازلهم عن حقوقهم للسيادة العامة التي يشكّل كلُّ فردٍ جزءًا منها، فتكون السيادة العامة هي الجسم السياسي الذي يعتبر السلطة العليا، وهنا يكون التنازل على حدِّ تعبير روسو من كل شخص للجميع لا لأحد بعينه، فيتشكل الميثاق أو العقد الاجتماعي وينتج عنه جسم معنوي جماعي عمومي، وتكون السيادة فيه وفق هذا العقد للشعب[٧].

نظرية العقد الاجتماعي وأثرها في أوروبا:

على الرغم من اختلاف منظِّري «العقد الاجتماعي» في تشخيص مستوى البدائية لدى المجتمعات، وفي تحديد نمط الأنظمة السائدة في مرحلة ما قبل «النضج السياسي»، وفي الدوافع

(١) هذا التفسير وفق منظور الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو صاحب كتاب «العقد الاجتماعي» وسيأتي توضيح اتجاهات أخرى للنظرية سابقة لروسو.
(٢) اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطان الدولة، لتوماس هوبز، ص (١٣٣-١٣٤).
(٣) المصدر السابق، ص (٣٣٠) فما بعد.
(٤) ينظر: مقالتان في الحكم المدني، لجون لوك، ص (١٣٩).
(٥) المصدر السابق، ص (١٨٩) فما بعد، وينظر في حدود السلطة: ص (٢١٩-٢٢٠).
(٦) ينظر: العقد الاجتماعي، لجان جاك روسو، ص (٨٠).
(٧) ينظر: العقد الاجتماعي، لجان جاك روسو، ص (٩٢) فما بعد.

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المفضية إلى صياغة «العقد الاجتماعي» إلا أنَّهم اتفقوا على أنَّ التحوُّلات الكبرى في المجتمعات لا بد وأن تُنتج عقدًا اجتماعيًا يحكم العلاقة بين السلطة والمجتمع[1].

وبالفعل هذا ما انتهى إليه الحال في أوروبا للخروج من مرحلة طويلة سادها الاضطراب والحروب والفوضى خضع الناس فيها لأعتى أنواع الاضطهاد، وتعرَّضوا لانتهاك أبسط الحقوق، فقام المفكرون بتحليل واقعهم وشخّصوا مشكلاته بدقة، ثم حاولوا رسم الحلول بما يتناسب مع هذا الواقع، وهو ما يفسر اختلاف توجهات نظرية «العقد الاجتماعي» عبر تاريخها، وهذا يؤكِّد على حقيقةٍ مُهمَّة وهي أنَّ الانطلاقة تكون من فهم طبيعة مشكلات المجتمع، ثم صياغة الحلول المرتكزة على هذه الخصوصية.

> **ما نشهده اليوم هو محاولاتٌ لصياغة عقدٍ اجتماعيٍّ تتضمَّن تناقضات منهجيّة في أصل النظرية؛ حيث تنطلق من منطلقات خارجية، إما بالتدخل المباشر من جهات دولية، أو من خلال التبنِّي المحلي لقيمٍ خارجيةٍ غريبة عن قيم المجتمعات المحلية**

مدى ملاءمة نظرية العقد الاجتماعي لبلادنا:

الذي نشهده اليوم هو محاولاتٌ لصياغة عقدٍ اجتماعيٍّ تتضمَّن تناقضات منهجية في أصل النظرية؛ حيث تنطلق من منطلقات خارجية، إما بالتدخل المباشر من جهات دولية، أو من خلال التبنِّي المحلي لقيمٍ خارجيةٍ غريبة عن قيم المجتمعات المحلية، وهو يُعتبر خطأً بنائيًا في صياغة العقد الاجتماعي، بل يُسهم في توسيع الهوَّة بين مكوِّنات المجتمع بدلاً من الوصول إلى ميثاق جامع، هذا إن قلنا بأنَّ المطلوب هو العمل على صياغة عقدٍ اجتماعي، فوقعنا بين إشكاليتين:

- **الأولى:** تطبيقٌ مشوَّه للنظرية -إن سلمنا بأولوية العمل عليها-.
- **الثانية:** القفز إلى استيراد نظريات انبثقت في لحظةٍ تاريخية معينةٍ في سياق مجتمعيٍّ وسياسيٍّ خاص، وإسقاطها على واقع مختلفٍ كليًا.

فمن مظاهر الإشكالية الأولى: ما يُلحظ في تلك المحاولات من القيام بعملية اختزال لمكونات المجتمع، حيث تقوم مجموعاتٌ منفردة تزعُم تمثيل غالب المجتمع، أو أنها تُعبر عن هويته بمحاولات صياغة العقد الاجتماعي!

ومن مظاهر الإشكالية الثانية: التهويل الكبير الذي يُطرح من النخب وبشكل مكثَّف على أنه هذا هو الحل، وذلك على حساب تغييب أطروحاتٍ أكثر عُمقًا ومناسبةً لواقع مجتمعاتنا.

ويجدر القول بأنَّ المنطقة العربية مرّت منذ مرحلة الاستقلال حتى اليوم بمحاولاتٍ شكلية ومشوهة لبناء ما يسمى بالعقد الاجتماعي أو الهوية الوطنية الجامعة، بينما هي في حقيقة الأمر توافقاتٌ دولية وتدخلاتٌ صريحة في ثقافة وقيم المجتمع، أسفرت عن تشوُّهات كبيرة للهوية الوطنية وتهميش كبير لفئات واسعة من المجتمع، مع إيجاد تيارات فكرية وسياسية مصطنعة تدعم هذا التوجُّه.

ونحن اليوم إن لم نستفد من تلك الحقبة والتجارب المشوَّهة بأن نُعيد توجيه البوصلة إلى داخل المجتمع فسنضيف إلى التجارب السابقة تجربةً أخرى من الفشل والتشويه للمجتمع والهوية الوطنية.

الشروط الرئيسية للعقد الاجتماعي:

قد يكون من المعالجة المجدية أن نطرحَ الأفكار بجرأة أكثر ونتساءل: هل غدت سوريا وغيرها من بلدان المنطقة حقلاً للتجارب؟

ما الدافع لهذا التساؤل؟ عندما نرى منظِّري «نظرية العقد الاجتماعي» والساعين فيها بقوة في بلداننا من الفاعلين المحلِّيين أو من الجهات الخارجية سواء كانت بصفتها ميسّرةً أو داعمةً لمثل هذه التجارب، فإن علينا أن نعيد الكرة إلى ملعبهم ونقول: هل ما يقومون به هو تطبيق أمينٌ لنظريَّتهم!؟ أم أنه كما ذكرنا سابقًا يتم التعامل مع مجتمعنا كحقل تجارب على غرار ما هو حاصلٌ في المجال العسكري!

ولتوضيح ذلك أكثر لنرجع للتأمل في الأفكار الرئيسية التي قامت عليها «نظرية العقد الاجتماعي» نجد أنَّ هناك شروطًا موضوعية لا بد

(١) العقد الاجتماعي لمرحلة ما بعد البعث، مقال على موقع «شارك شباب»، بإشراف د.بشير زين العابدين.

العقد الاجتماعي: هل يصلح حلاً لمشكلاتنا؟

من توفُّرها كما وضعها مؤسسوها، وإلا أصبحت النظرية فارغة من مضمونها، ويمكن تلخيص هذه الشروط في ثلاثة مرتكزات لا يمكن تجاوزها في أي محاولة لصياغة عقد اجتماعي:

- **الأول:** تمثيل ومشاركة فئات المجتمع كافة، فهذا العقد هو حالة تأسيسية للمبادئ العليا التي تحكم جميع مكونات المجتمع من جهة، وعلاقات المجتمع مع الدولة من جهة أخرى، فلا يسوغ أبدًا انفراد فئات محددة أو ممارسة تجمُّعاتٍ معينة محاولات للتأثير بما يخدم مصالحها الخاصة.
- **الثاني:** أن يكون العقد الاجتماعي صادرًا من المجتمع نفسه دون تدخل جهات خارجية سواء باقتراح مسودات أو بتيسير حوارات أو رعاية الحوارات وتحديد الجهات المشاركة فيه، بل يجب أن يكون جهدًا وطنيًا خالصًا من ألفه إلى يائه[1].
- **الثالث:** الحرية، وهي أولوية ضرورية لا غنى عنها، بحيث تكون الأفراد والمجتمعات بعيدة عن أي قيود أو وصايا تحول دون التعبير الحقيقي عن إرادتها الحرة[2]، وما نراه اليوم من تدخُّلات خارجية تمارس ضغوطًا مباشرة أو غير مباشرة، وإيحاءات وإغراءات على الأفراد المنخرطين في محاولات صياغة عقدٍ اجتماعي تنقض الافتراض الذي قامت عليه فلسفة العقد الاجتماعي من أنَّ الناس حكماء عقلانيون في خياراتهم.

فما هي نسبة توفر وتحقق تلك الشروط؟

من أبرز الانتقادات التي وُجِّهت لنظرية العقد الاجتماعي أنَّها تقوم على حالة متخيَّلة ليس لها سندٌ من الواقع أو التاريخ، فإنَّه لم يثبت عبر التاريخ أنَّ دولةً ما تشكَّلت بهذه الطريقة من التعاقد

نظرية العقد الاجتماعي والانتقادات الموجهة لها:

تعرضت نظرية العقد الاجتماعي لمجموعة من الانتقادات من عدد من المفكرين الغربيين أنفسهم، مثل ديفيد هيوم وبلونتشلي وبرتراند راسل، وكان أبرزها:

» أولاً: تقوم النظرية على حالة متخيَّلة ليس لها سندٌ من الواقع أو التاريخ، فإنَّه لم يثبت عبر

(١) لمزيد من التوضيح ينظر: العقد الاجتماعي لمرحلة مابعد البعث، مقال على موقع «شارك شباب» بإشراف د.بشير زين العابدين.
(٢) ينظر: هل تحتاج سوريا عقدًا اجتماعيًا أم دستورًا ؟ مركز الحوار السوري: مادة منشورة على موقع مركز الحوار السوري بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٢٠م.

التاريخ أنَّ الدولة تشكَّلت بهذه الطريقة من التعاقد[١].

» ثانيًا: الحالة الفطرية المفترضة للبشر تقوم على أوهام، ولم تعتمد على دراسات تفيد أنَّ البشر في الأصل كانوا في حالة فوضى وشرور على مبدأ هوبز، أو حالة العزلة بعيدًا كما يقرر جون لوك، أو تلك الحالة التي افترضها روسو فيما قبل وجود السلطة[٢].

» ثالثًا: تقوم نظرية العقد الاجتماعي على تكريس السلطة المطلقة، وهذا بدا واضحًا عند هوبز، فهو يقرِّر تنازل الناس عن جميع حقوقهم من غير استثناء، وليس لهم مساءلة الحاكم إذا انحرف، فهذا تأصيل لديكتاتورية مطلقة.

» أما روسو فعندما يفترض تفويض جميع الأفراد حقوقَهم فهو يقرِّر سلطةً مطلقةً للحاكم، فإرادته ستكون هي الإرادة العامة، وإن كان روسو قيد تصرفات الحاكم بحدود ما تقتضيه المصلحة العامة، لكن السلطة المطلقة هي جوهر الطغيان كما يقول أرسطو[٣]، ويرى ديفيد هيوم أنَّ نظرية العقد ضارَّة من حيث إنَّ واجب المحكومين في المجرى العادي للأحداث هو الخضوع للسلطة، وعلى الرغم من أنَّ نظرية العقد تشدُّ انتباهنا بعيدًا عن القاعدة العامة وتُوجِّهه إلى الاستثناءات، فإنَّنا في حالة الاستثناءات قد نميل كثيرًا إلى أن نؤمن بها ونوسِّعها، إنَّ الولاء الإرادي هو ولاء محفوف بالمخاطر[٤].

» رابعًا: الحريات والحقوق الأساسية لا يصلح أن تكون محلاً للتعاقد أو التنازل، وإن حاول أصحاب النظرية الالتفاف على ذلك باعتبار أن هذا التنازل نفسه هو فعلٌ واعٍ من البشر وهو يعبِّر عن حريتهم في الأصل!

» خامسًا: فكرة العقد في ذاتها لا تستقيم من الناحية القانونية، لأنَّ فكرة القوة الإلزامية للعقد لا توجد إلا بوجود سلطة تحمي العقود وتطبق الجزاءات، فلا يمكن أن يكون العقد الذي يحتاج إلى حماية السلطة العامة هو الذي أنشأ السلطة وأقامها.

» سادسًا: فكرة العقد الاجتماعي لم تُثبِت قُدرتها على تحقيق نبوءتها بزوال الاستبداد، وإنما أقصى ما وصلت إليه هو إيجاد تثقيف واسع جدًا للشعوب والنخب بخصوص الحريات وحقِّ الأفراد في المشاركة السياسية، وأعادت الاعتبار للشعب في اختيار السلطة ومساءلتها، بل جعلت الشعب أساس الدولة ومصدر شرعيتها، وهذا إنجاز عظيم «لكنَّ نبوءتها الضمنية بزوال الاستبداد لم تتحقق، ولم تَثْبُت فلسفةُ العقد الاجتماعي أمام امتحان الواقع التاريخي.. وهي لا يبدو أنها ما تزال قادرة على الحيلولة دون ظهور دكتاتوريات من طراز جديد أكثر قسوة أحيانًا من الاستبداد القديم»[٥].

ولعله من المهم بعد هذه الانتقادات أن نؤكد ما نعتقده بأنَّ «نظرية العقد الاجتماعي» في حقيقتها مجرَّد فرضية، فإنه لا يوجد اليوم ولا سابقًا ديمقراطية في العالم قامت بصياغة وثيقة اسمها «العقد الاجتماعي»، فهناك دساتير مكتوبة ودساتير عرفية في كثير من الدول الديمقراطية وتجارب ناجحة لكنها لم تمر بمرحلة صياغة العقد الاجتماعي، لذا ينبغي أن نضع النظرية في سياقٍ صحيح لنستفيد منها كما استفاد منها العالم، فقصارى ما حققته إيجاد ثقافة عالمية قوية في مجال الحقوق والحريات وإعادة الاعتبار للشعب[٦]، وليس وثيقة يشترط العمل عليها لتكون مقدمةً لأي عملية انتقال من مرحلة استبداد وفوضى إلى مرحلة سِلم عام وعدالة واستقرار.

هل نحتاج اليوم لعقد اجتماعي لحل مشكلاتنا؟

ما سبق من انتقادات لنظرية العقد يجعلنا نقف كثيرًا أمام ما يُطرح اليوم بين النخب حول نظرية

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة السياسية، لِيو شتراوس وجوزيف كروسبي (١٢٩/٢).
(٢) المصدر السابق (١٢١/٢).
(٣) ينظر لمزيد من النقاش لنقد فكرة تنازل الأفراد عن حقوقهم وما ينجم عنه من سلطة غير مقيدة: حكمة الغرب، لبرتراند راسل (١٠٧/٢).
(٤) المصدر السابق (١٣٠/٢).
(٥) ماذا تبقى من دولة العقد الاجتماعي، د.برهان غليون، مجلة قلمون، العدد الخامس عشر، ص (٣٦).
(٦) في الحقيقة لم يكن تقرير هذه المبادئ (الشعب مصدرًا للسلطة -الحريات -حق التملك) إبداعًا جديدًا في مجال الفكر السياسي العالمي، بل عرف العالم نظرية متكاملة في الفقه السياسي الإسلامي بما يخص الحريات وحقوق المشاركة السياسية وحق مساءلة الحاكم ودور الشعب كمصدر للسلطة، كما عُرف في حضارة اليونان شيء مما يتعلق بحق الشعب لكنها كانت منقوصة حيث اقتصرت على فئات محددة، ينظر تفصيل لذلك في مقال بعنوان: النظرية السياسية الإسلامية مقارنة بالنظريات السياسية الحضارية، مقال منشور في العدد الخامس من مجلة رواء، ص (٢٨).

«العقد الاجتماعي» حلاً للأزمة بين الدولة المستبدَّة والشعوب المغلوب على أمرها في المنطقة العربية، مستلهمين حالة التغيير التي أحدثها مفهوم العقد الاجتماعي في أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث جعل الملوكَ مسؤولين أمام الشعب وليس أمام الله وكان ذلك نقضًا لنظرية الحق الإلهي -بمفهومها الذي يجعل الحاكم فوق أي مساءلة- والتي كان يحكم من خلالها الملوك تلك الفترة في أوروبا[١]، وهذا يدل على أنَّ فكرة العقد الاجتماعي لها جذورٌ اجتماعية ودينية كانت تنظِّم العلاقة بين الله والإنسان وبين الحاكم والمحكوم، وهذه المعادلة لم تكن موجودةً يومًا ما في مجتمعاتنا[٢]، لذا فإنَّ تحويل فكرة العقد الاجتماعي إلى محرك تاريخي وصيرورة عملية لا يمكن إنهاء الاستبداد من دونها هو وهمٌ تاريخي[٣]، ومحاولة لتعميم نظريات مبتوتة عن فهم خصوصية السياقات والظروف المجتمعية والزمانية والمكانية المراد توظيفها فيها؛ ومن البدهي القول إنَّ خصوصيات الحالة المجتمعية تفرض نفسها عند محاولة تعميم الحل لمجتمعات أخرى، ومن البدهي القول أيضًا إنَّ نجاح نظريةٍ ما في مجتمعٍ ما لا يعني نجاحها في كلِّ وسط؛ وتبقى الإفادة من المنظور العام للنظرية؛ حيث رسخت مضامين مهمة كإعادة الاعتبار لسلطة الشعب، كما أعادت الاعتبار للحقوق الأساسية للأفراد المتمثلة في حق الحياة والحرية والعدالة والتملك والمشاركة السياسية.

> **إنَّ استيراد نظريات غربية بقوالب جاهزة للتطبيق على مجتمعاتنا كأنها عصا سحرية للتغيير هو نوع من العجز الذي يمثِّل عدم القدرة على صنع مقاربات خاصة مناسبة لخصوصية مجتمعاتنا**

إنَّ استيراد نظريات غربية بقوالب جاهزة للتطبيق على مجتمعاتنا كأنها عصا سحرية للتغيير هو نوع من العجز الذي يمثِّل عدم القدرة على صنع مقاربات خاصة مناسبة لخصوصية مجتمعاتنا.

هذه النظرة في التعامل مع النظريات الغربية تحجُب التفكير عن أسسٍ مهمَّة ارتكزت عليها ونابعةٍ من المجال الخاص بها، فلو تأمَّلنا في الأسس التي بُنيت عليها نظرية العقد الاجتماعي والتي تتلخص في: (الحالة الفطرية، ومسألة التعاقد، ومسألة الحقوق الأساسية، ومسألة حدود سلطة الحاكم) سنجد أنها كلَّها بنيت على خصوصيات مرحلة نشوء النظرية، فمسألة الحالة الفطرية -على اختلافهم فيها هل هي حالة أنانية وشر وفوضى أو مساواة وسلام؟- جُعلت أساسًا وتمهيدًا طبيعيًا لتبرير نشوء الدولة وانتقالها بشكل تدرُّج طبيعي دون الحاجة لتدخل الكنيسة باسم الإله.

وكذلك مسألة التعاقد أسَّست لحالة الانتقال من المجتمع الطبيعي أو الحالة الفطرية للبشر إلى الحالة التنظيمية بحيث جعلت الحق بالكامل بيد البشر، ثم قاموا بالتنازل عن حقوقهم لصالح الدولة لتقوم بحمايتهم من الفوضى ولأجل تحقيق الأمن والمساواة، فسحبت مرجعية ومسؤولية الحكام من أمام الكنيسة لتكون أمام الناس.

ومسألة الحقوق الأساسية هي تأكيد على الحقوق المسلوبة في تلك الفترة حتى تكون عنوان التحوُّل الجديد بعيدًا عن هيمنة الكنيسة والأباطرة على حريات وحقوق الأفراد أو نزعهم حقَّ التملك الخاص.

أما مسألة حدود سلطة الحاكم فكانت مطلقةً عند هوبز مراعاةً للظروف والقلاقل التي عصفت بأوروبا في زمانه، فكان الحلُّ في نظره حاكمًا مطلقًا لا يُنازع، يقول برتراند راسل: «لقد تأثرت نظرية هوبز بالقلاقل السياسية التي انتشرت في عصره، وكان أكثر ما يخشاه وينفر منه هو الانشقاق الداخلي، ولذا كانت آراؤه تنشد السلام بأي ثمن»[٤].

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن نظرية الحق الإلهي في تلك الفترة لم تكن مقتصرة على أوروبا بل كانت شائعة في أغلب العالم، لكن النموذج الأوروبي كان نموذجًا ذا خصوصية من خلال الحكم البابوي الأكثر تسلطًا داخليًا وخارجيًا وفي جميع مجالات الحياة، حيث عرفت تلك الفترة باسم عصور الظلام أو العصور الوسطى، ويمكن الاطلاع على مزيد توضيح حول ذلك من خلال مقال منشور في العدد الخامس من مجلة رواء بعنوان: «النظرية السياسية الإسلامية مقارنة بالنظريات السياسية الحضارية»، ص (٢٨).

(٢) المقصود هنا باالمعادلة التي تنظم العلاقة الدينية بين الله والإنسان وبين الحاكم والمحكوم هي تلك التي كانت تقوم على ما عرف بنظرية السيفين أو الحق الإلهي، وهي ادعاء القدسية للحاكم بحيث يكون فوق المساءلة مع مصادرة حقوق الشعب في التعبير أو الاختيار أو التمثيل، وإلا فإن الفقه السياسي الإسلامي قائم على المرجعية الدينية وينظم جميع العلاقات بين الله والناس وبين الحاكم والشعب على أساس الحقوق والعدل، لمزيد من التفصيل ينظر: «النظرية السياسية الإسلامية مقارنة بالنظريات السياسية الحضارية»، مقال منشور في العدد الخامس من مجلة رواء، ص (٢٨).

(٣) ينظر للتوسع في هذه الفكرة: العقد الاجتماعي.. سوريا نموذجًا، لحسين عبد العزيز، مقالة منشورة على موقع «عربي٢١» بتاريخ ١١سبتمبر٢٠٢١م.

(٤) حكمة الغرب، لبرتراند راسل (٤٨/٢).

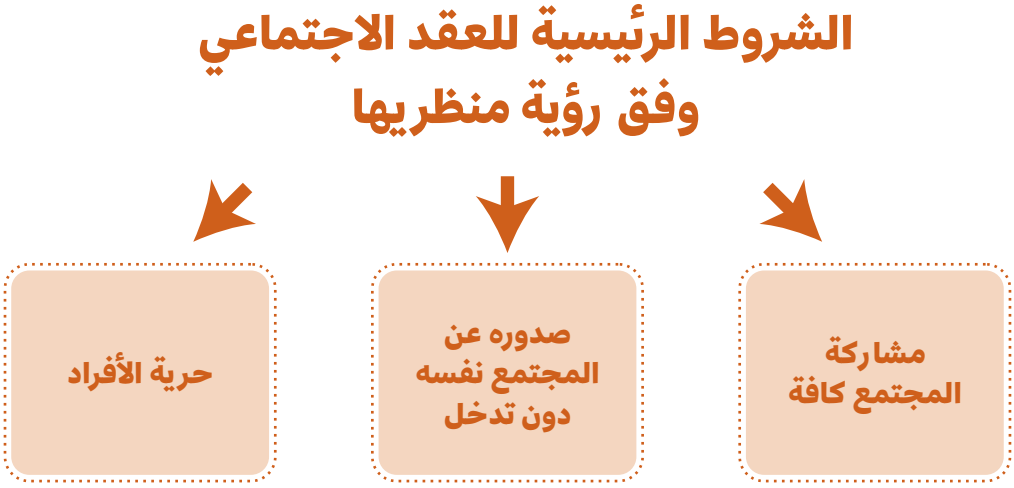

بينما أخذت شكلاً أكثر اعتدالاً من خلال تقييد سلطة الحاكم بالحقوق الأساسية عند جون لوك، وبالتصرف وفق الإرادة العامة عند هوبز.

> **مشكلتنا اليوم ليست دينية، وليست في تصادم الإرادات الجزئية لفئات المجتمع، بل في الاستبداد السياسي المتحكم بمفاصل المجتمع، وبالتالي ألا نستطيع أن نصوغ العقد الاجتماعي الخاص بنا بعيدًا عن أفكار نشأت في سياق تاريخي معين وظروف مجتمعية خاصة؟**

يقول ماترن في كتابه «مفاهيم الدولة والسيادة»: «إنَّها حقيقةٌ هامة، وإن كانت مجهولة لدى كثير، أنَّ نظريات «هوكر» و«هوبز» و«لوك» و«روسو» كانت نتيجة نوازعهم السياسية واهتمامهم بنتائج المعارك الدينية والسياسية التي كانت على التعاقب ناشبةً في زمانهم في الأوطان التي كانوا يدينون لها بالولاء، أو في البلاد التي وجدوا فيها موئلاً ومقامًا»[1].

فنرى أنَّ أصول النظرية قامت على حل مشكلاتٍ ومعضلات كانت تعاني منها مجتمعاتهم، لذا فإن استحضار النموذج واعتباره حلاً دون تشخيص المشكلات الرئيسية للواقع سيحدث مشكلات إضافية.

فهذا يدعونا إلى تشخيص دقيق لمشكلات مجتمعنا، وليس جلب نصوص ومسودَّات من هنا وهناك ومن بعض الوثائق الدولية، ثم نضعها محدداتٍ لعقدٍ اجتماعيٍّ جديد، كما حصل في بعض المحاولات حيث راحت تنصُّ على علمانية الدولة وتهميش الدين لبلد يشكّل المسلمون نسبة ٨٠-٩٠٪ من سكانه، وهو جزءٌ أصيل من هوية البلد وحضارته، والمناداة بحرية الردة عن الدين، وإطلاق الحرية لممارسة الشذوذات السلوكية كالمثلية وما شابه، فأين هذه من القيم الجامعة للمجتمع المراد وضع ميثاق جامع له!؟

تعاني مجتمعاتنا اليوم بالدرجة الأولى من استبداد سياسي متحكِّم في جميع مفاصل الحياة، فمشكلتنا ليست دينية أو كنسيّة، وليست في تصادم الإرادات الجزئية لفئات المجتمع كما عند روسو، وبالتالي ألا نستطيع أن نصوغ العقد الاجتماعي الخاص بمجتمعاتنا بعيدًا عن طرح أفكار نشأت في سياق تاريخي معين وظروف مجتمعية خاصة؟

(١) نقلها عنه د.ضياء الدين الريس في كتابه «النظريات السياسية»، ص (٢٣).

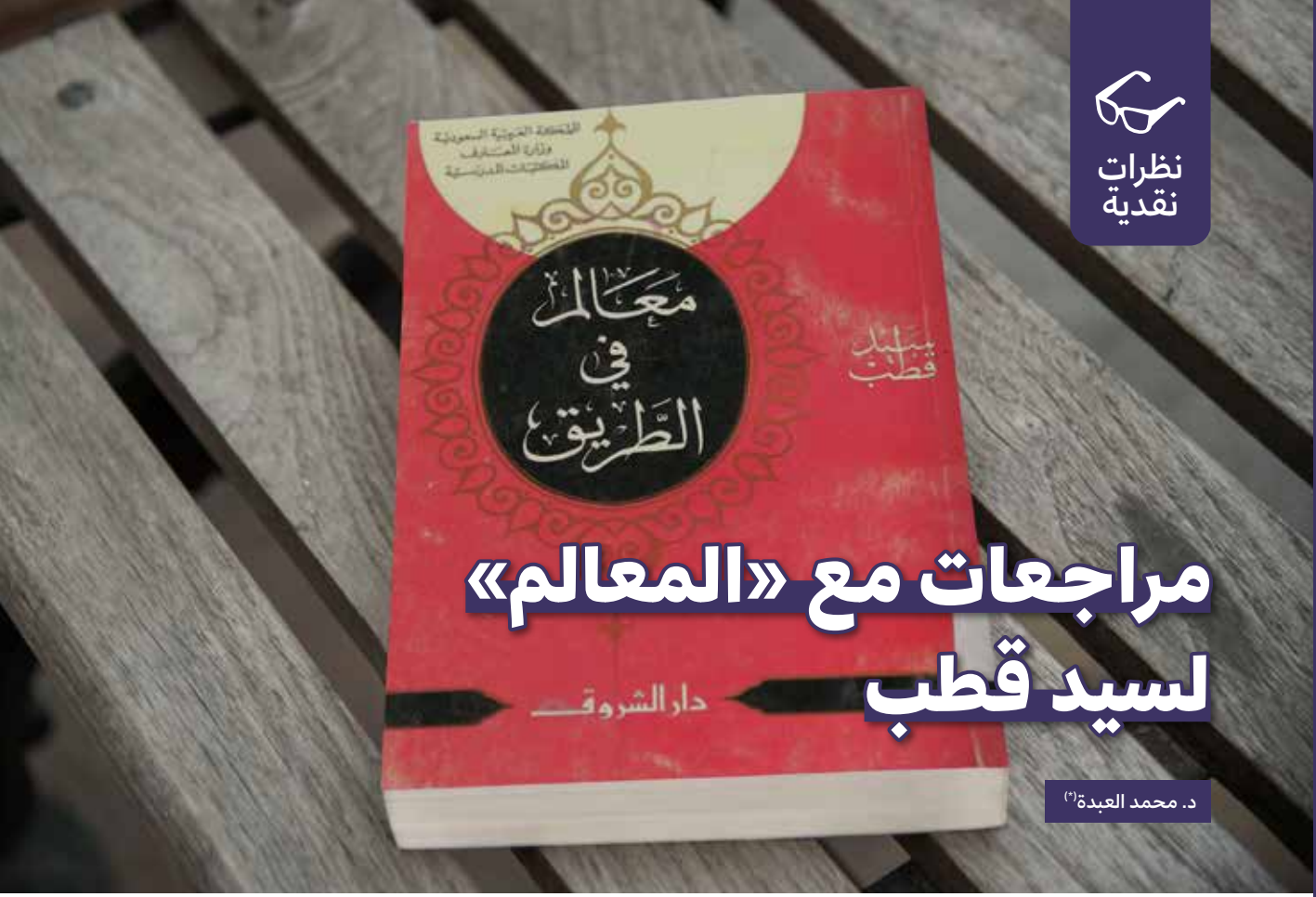

مراجعات مع «المعالم» لسيد قطب

د. محمد العبدة(*)

يُعدُّ سيد قطب من أكثر أعلام الدعوة الإسلامية المعاصرين تأثيرًا وتجاذبًا بين التيارات المختلفة، فصِدق عباراته وقوة كلماته التي عزَّزتها تضحياته الجسيمة في سبيل الدعوة ومقاومة الطغيان؛ جعلت لكلماته أثرًا بالغًا على سامعها وقارئها. كما أنَّ أطروحاته كانت جريئةً ذات لغةٍ أدبيةٍ راقية، تدعو إلى مواجهة الباطل والتصدّي للطغيان. وحيث كان للعديد من عباراته أثر في تشكيل عدد من التصورات والاجتهادات التي تبنّتها الحركات والتيارات الإسلامية، كان لا بد من عرضها على ميزان الشريعة لنقدها وتمحيصها، وفي هذا المقال يتناول الكاتب شيئًا من ذلك.

مقدمة

لا أحد يجهل مكانة سيد قطب؛ فهو داعية ومفكر إسلامي كبير. وقد أثرى المكتبة الإسلامية مبكرًا بمقالاته وكتاباته الواضحة الجريئة مثل: معركة الإسلام والرأسمالية، السلام العالمي والإسلام، العدالة الاجتماعية في الإسلام.

كما أثرى الدراسات القرآنية بكتابيه: (التصوير الفني في القرآن)، و(مشاهد القيامة في القرآن).

وكان كتابه (في ظلال القرآن) قمّة عطائه ودرّة إنتاجه، ثم ظهر كتاب (معالم في الطريق)، وكان لهذا الكتاب دور كبير وتأثير واضح على شباب الحركة الإسلامية، «والكتاب صِيغَ بأسلوبٍ يمتاز بالوضوح والقوة والجِدِّ والجمال واللهجة الصادقة، وأغلى ما فيه هذه الروح الاستعلائية الاعتزازية التي تمثل مرحلةً جديدةً من مراحل الدعوة الإسلامية المعاصرة»[1].

ومن أسباب تأثير الكتاب أنّه ظهر في وقت كان كاتبه فيه معارضًا للسلطة في بلده، بل سجينًا

(*) مفكر وداعية، دكتوراه في التاريخ الإسلامي، عضو المجلس الإسلامي السوري، نائب رئيس رابطة علماء المسلمين.

(١) نظرات في منهج العمل الإسلامي، لجعفر شيخ إدريس، ص (٤٦).

في زنازينها، فقامت السلطة بمصادرة الكتاب، وحاولت منع انتشاره، حتى دفع الكاتبُ حياته ثمنًا للصمود أمام الظلم، وذهب إلى ربه شهيدًا بإذن الله.

استُقبل هذا الكتاب من فئاتٍ كثيرةٍ وَجَدت فيه ضالَّتها المنشودة ورائدَها المأمول واعتبرته الطريق الصحيح، وتعاملت معه بمثالية كبيرة، وحتى لو وجدت بعض الإشكالات والمؤاخذات فيه.

والعدل والإنصاف يقتضي الاعتراف بما في الكتاب من الحق والبيان الواضح، مع بيان الإشكالات التي فيه ومراجعتها، بما لا ينقص من قيمة الكتاب ولا من قدر المؤلف، ولسنا بحاجةٍ للتأكيد على حاجة الدعوة الإسلامية إلى المراجعات بين الفترة والأخرى، وما يجري في هذه الأيام لدى بعض الحركات الإسلامية يُثبت ذلك.

والمراجعات لا تكون في ثوابت الدين والملة، ولكن في فهم النصوص وتطبيقها على الواقع، وفي طريقة عرض الإسلام وأساليب الدعوة، بما يعين على ردِّ المسلمين إلى حقيقة الإسلام، وفيما يأتي اثنان من المواضع التي تحتاج للمراجعة والنظر.

> **المراجعات لا تكون في ثوابت الدين والملة، ولكن في فهم النصوص وتطبيقها على الواقع، وفي طريقة عرض الإسلام وأساليب الدعوة، بما يعين على ردِّ المسلمين إلى حقيقة الإسلام**

الموضع الأول:

يقول سيد قطب رحمه الله في فصل (جيل قرآني فريد):

«لقد كان الرجل حين يدخُلُ في الإسلام يخلع على عتبته كلَّ ماضيه في الجاهلية، كان يشعُرُ أنه بدأ عهدًا جديدًا، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية، كان يقفُ موقف المستريب الحذِر الذي يُحسُّ أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام، كانت هناك عزلة شعوريةٌ كاملةٌ بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلةٌ كاملة في صِلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية، كان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية عُرفها وتصورها وعاداتها وروابطها ...»[1].

هكذا صوّر سيد قطب رحمه الله الشخصية العربية يومها: تنسلخ من كل ماضيها بما فيه من العادات والأعراف والقيم ليصوغه القرآن صياغة مستأنفة (من الصفر) وكأنه صفحة بيضاء، وقد مُحيت كل ثقافته السابقة.

هل هذا صحيح؟ وهل كل الروابط والقيم وكل ما كان قبل البعثة المحمدية هو رجس يجب أن تحصل معه المفاصلة التامة؟

الأدلة الشرعية تقول غير ذلك:

أولاً: القرآن الكريم لا يقطع ما قبله، وقد أنزله الله سبحانه ليتمِّم الرسالات السماوية، ويكون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وهكذا تتصل حلقات التوحيد «وكلُّ قيمة تمتُّ إلى الحق والخير هي قيمة معترفٌ بها في نسق الإسلام القيمي، لا يمنعه في ذلك مانع تاريخي، لأنه فرع من شجرة التوحيد الأول، وكل بقية من خير كان عليه الجاهلون ستجد تمامها في الإسلام، والقرآن الكريم يدعو الرسول ﷺ والمؤمنين معه للاعتبار بشهادة التاريخ الذي يقدم القصص القرآني نماذج له، والغرض العام من القصص القرآني أن يصل الرسولَ ﷺ ومَن معه ومَن بعده مِن المؤمنين بالعمق التاريخي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]»[2].

والقرآن الكريم يستشهد بعالِم مِن علماء بني إسرائيل على نبوة محمد ﷺ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]. ويحتكم إلى العُرف الأخلاقي المعروف بين الناس، فقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: الذي يعرفونه أنه من الفطرة والأخلاق الحسنة.

وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيتَ أمورًا كنت أتحنَّث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: (أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير)

(١) ينظر: معالم في الطريق، ص (١٩-٢٠).
(٢) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، لعبد القادر التيجاني، ص (٤٨-٥٠).

ماذا فعل الإسلام بالعادات السائدة في فترة الجاهلية؟

العادات الجاهلية السيئة	العادات الحميدة
نبذها وسن عادات حميدة بدلاً منها	أبقاها ووضعها في القصد التوحيدي

وفي رواية له: «قلتُ: فوالله لا أدع شيئًا صنعته في الجاهلية إلا فعلتُ في الإسلام مِثلَه»[١].

قال الإمام النووي: «الحديث على ظاهره، وأنه إذا أسلم الكافر ومات على الإسلام يثابُ على ما فعله من الخير»[٢].

> **الإسلام لا يقطع قيم الخير ولكن يضعها في القصد التوحيدي .. وقد كان عند العرب في الجاهلية شيم وأخلاق حميدة، وبقية من سنن الفطرة، فأقرَّها الإسلام ولم يبطلها**

فالإسلام لا يقطع قيم الخير ولكن يضعها في القصد التوحيدي، أما حديث عمرو بن العاص ﷺ: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، قال: (مالك يا عمرو؟) قلت: أردت أن أشترط، قال: (تشترط بماذا؟) قلت: أن يُغفر لي»، قال: (أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها)[٣]. ففيه أنَّ عمرو بن العاص ﷺ كان يسأل أن تُغفر له الآثام التي ارتكبها في الجاهلية، وأما حكيم بن حزام فكان يسأل عن أعمال الخير التي فعلها في الجاهلية، وقد أوضح لهما الرسول ﷺ أن الدخول في الإسلام لا يجُبُّ الشرَّ والخيرَ معًا، وإنما يستصحب الخير والحق في القيم والأعمال والعلاقات، ويثيب عليها ويبطل الباطل.

وكان عند العرب في الجاهلية شيم وأخلاق حميدة فأقرَّها الإسلام، مثل (القسامة)[٤]، وكانت الدية زمن عبد المطلب مئةً من الإبل وأبقاها النبي ﷺ[٥]، وكان عندهم بقية من سنن الفطرة.

وعندما تقول السيدة خديجة ﷺ للرسول ﷺ: (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[٦] فهذا يدلُّ على أنَّ هذه الصفات كانت موجودةً عندهم.

وعندما أُسرت سفّانة بنت حاتم الطائي قال الرسول ﷺ: (خلوا عنها، فإن أباها كان يحب

(١) أخرجهما مسلم (١٢٣).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤١/٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٢١).
(٤) إالْقَسامة هي الَأيمان المكررة فِي دعوى القتل التِي ليس فيها بيّنة.
(٥) الأوائل، للعسكري، ص (٢٨).
(٦) أخرجه البخاري (٣).

مكارم الأخلاق)[1]، وأبوها مات قبل أن يُدرك الإسلام.

ثانيًا: هل يستطيع الإنسان أن ينسلخ تمامًا من ماضيه ويكون صفحة بيضاء، وليس لثقافته السابقة أي تأثير؟ فهذا الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري يقول لبلال ﷺ: يا ابن السوداء! فيقول الرسول ﷺ لأبي ذر ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[2] أي: فيك خصلة من خصال الجاهلية، ومن الأمثلة على ذلك: هذه المُلاحاة التي وقعت في مسجد رسول الله ﷺ بين الأوس والخزرج وظهرت فيها الحمية القبلية، كما في حديث عائشة ﷺ وهي تروي قصة الإفك: «قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخُلُ على أهلي إلا معي)، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعَمر الله لنقتلنه، فإنَّك مُنافق تُجادل عن المنافقين، فتثاور الحيّان حتى همُّوا أن يقتتلوا، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا»[3].

ثالثًا: لقد شاءت الإرادة الربانية اختيار هذا الجيل من العرب ليكونوا أصحاب نبيه ﷺ، كما قال الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ...»[4].

إنه جيل أقرب للفطرة، وبالرغم من وقوعهم في الوثنية إلا أنهم يحملون تراثًا أخلاقيًا نادر المثال، وهذه الفضائل البارزة عندهم أحياها الإسلام وحَوّر الأهداف ليربطها بمقاصد التوحيد، فالشجاعة الموجودة عندهم -وهي خلق عظيم- زوَّدها القرآن بوجهةٍ محدّدة، ولم تفقد بالإسلام ذرةً من طاقتها الأصلية، وصارت شجاعة سامية مهذَّبة، والحمية والأنفة كانت إلى درجة الغُلُو فعدَّلها الإسلام وجعلها غضبًا لدين الله، وكذلك الكرم وغيره من الفضائل، فكلُّ بقيةٍ من خير كان عليه أهل الجاهلية ستجد تمامها في الإسلام.

لقد وجد الرسول ﷺ حوله أُناسًا يحملون صفات الرجولة والمروءة والصدق.

ولنا أن نسأل: كيف نعلِّل إسراع أبي بكر ﷺ إلى الإيمان من أول يوم؟ لم يتردد ولم يتلعثم، هل هو إيمان العاطفة فقط أم هو إيمان الذكاء والفطنة والعقل الكبير أيضًا؟ لا شكَّ أنه كان يفكر في أحوال مكة ووثنية مكة، والمعروف عنه أنه لم يشرب الخمر في الجاهلية لا هو ولا عثمان ﷺ، ثم كيف نعلل إسلام كبار الصحابة على يد أبي بكر: عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعد، أليس لأنَّ أصداء القرآن تجاوبت مع شيءٍ مدفون في أعماقهم، أليس لأنهم وَجَدوا أنفسَهم في هذا الدِّين؟

أسلم خالد بن الوليد ﷺ في السنة السابعة من الهجرة، وفي السنة الثامنة قاد معركة مؤتة بعد استشهاد القادة الثلاثة وأنقذ المسلمين من مأزق كبير، إنه عسكري قائد بفطرته، فهل يترك خبرته العسكرية التي كانت في الجاهلية؟، وقبيلته: بنو مخزوم كان اختصاصهم في قريش (اللواء) أي الاهتمام بالجانب العسكري، وشخصية مثل عمر بن الخطاب من بني عدي كان اختصاصهم في قريش القضاء والفصل في الخصومات، ومنذ أسلم أعز الله به الإسلام كما في رواية البخاري عن عبد الله بن مسعود[5].

قال ﷺ: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[6].

(١) السيرة النبوية، لابن كثير (١/١٠٩).

(٢) أخرج البخاري (٣٠) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «سابتُّ رجلًا فعيَّرتُه بأمه، فقال لي النبي ﷺ: (يا أبا ذر أعيرتَه بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية). قال الحافظ ابن حجر: «قيل: إنَّ الرجل المذكور هو بلال المؤذن مولى أبي بكر» (فتح الباري: ١/٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣٦٠٠).

(٥) أخرج البخاري (٣٦٨٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر».

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (٢٦٣٨) واللفظ لمسلم.

وجد العرب في هذا الدين البساطة والوضوح الذي هو من طبيعة حياتهم وما يعرفونه من نفوسهم. شخصيات كبيرة أسلمت وهي قيادية في الجاهلية وصارت قيادية في الإسلام أيضًا.

لماذا يؤكد سيد رحمه الله على مقولته: إنَّ الصحابي عندما يدخل في الإسلام بعد أن كان في جاهلية يتخلص من كل ماضيه، يبدأ عهدًا جديدًا منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية؟ يؤكد ذلك لأنه ينسجم مع أطروحته التي قارن فيها بين الحركة الإسلامية اليوم وما وقع في السيرة النبوية في بداية الدعوة، ووجه الشبه: أنه في بداية الدعوة يوجد مجتمع جاهلي يخرج منه أفراد يتربون بالقرآن والسنة ثم يتكون مجتمع إسلامي يمهد لبناء دولة.

وكذلك اليوم: المجتمع مجتمع جاهلي (كما يراه وكأنه لا فرق بينه وبين المجتمع الجاهلي قبل البعثة) نستخرج منه أفرادًا ينفصلون كليًّا عن هذا المجتمع ويؤسِّسون المجتمع الإسلامي «المهمة هي نفسها: بناء العقيدة على مهل ولفترة طويلة حتى تتشربها العقول والقلوب ثم المجتمع المسلم الذي يتولى في مرحلة لاحقة بناء الدولة»[1].

الخيرية موجودة عند المسلم، ولكنها تتأثر بعوامل ومتغيرات كثيرة نابعة من البيئات التي يعيش فيها، فالواجب أن نتدرَّج بهذه الشخصية إلى الغايات العليا، لا أن نضع صورة مثالية مطلقة ثم لا تتحقق، أو تتحقق عند أفراد قلائل ثم يعقب ذلك الانكماش والتجمع الهامشي

الموضع الثاني:

يرى سيد قطب حسب أطروحته هذه إمكانية إخراج جيل كجيل الصحابة، جيل يتحمل المسؤولية عن إقامة هذا الدين، بل يتحمل مسؤولية قيادة البشرية الضالة الشاردة الغارقة في الآثام، بشرط أن يقتصر تلقي هذا الجيل من النبع الصافي وحده: القرآن الكريم والسنة النبوية، وأن يكون هذا التلقي للتنفيذ العملي وليس للبحث والدراسة والمتاع العقلي، وأن يعتزل هذا الجيل الجاهلية المحيطة به وسماها (العزلة الشعورية).

يقول مستدلاً على ذلك: «إنَّ قرآن هذه الدعوة بين أيدينا، وحديث رسول الله ﷺ وهديه العملي بين أيدينا كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الأول الذي لم يتكرر في التاريخ، ولم يغب إلا شخص رسول الله ﷺ، فهل هذا هو السر؟ (أي لماذا لم يتكرر

(١) مراجعات الإسلاميين، لبلال التليدي، ص (٣٢٦).

في التاريخ) لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتميًا لقيام هذه الدعوة وإيتائها ثمراتها ما جعلها الله دعوة للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، ولكن الله سبحانه تكفّل بحفظ الذكر وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ﷺ، وإذن فإن غيبة شخص رسول الله ﷺ لا تفسر تلك الظاهرة»[١].

يؤكد الدكتور جعفر شيخ إدريس أنَّ مقدِّمات هذه الحجَّة لا تؤدِّي إلى نتيجتها، ويقول: «وإذن وجود شخص الرسول ﷺ ليس حتمياً لقيام هذه الدعوة، وإذن فغيبة شخصيته ﷺ لا تمنع من استمرار هذه الدعوة، وهذه حجة صحيحة، ... لكن النتيجة التي انتهى إليها الكاتب الفاضل هي: (وإذن فإن غيبة شخص الرسول ﷺ لا تفسِّر تلك الظاهرة) يعني ظاهرة عدم تكرار جيل الصحابة.

إنَّ عدم ضرورة وجود شخص الرسول ﷺ لاستمرار الدعوة لا يعني عدم ضرورته لوجود جيل كجيل الصحابة، فالأمران مختلفان اللهم إلا إذا قلنا إنَّ الدعوة لا تقوم ولا تؤتي ثمارها إلا بوجود جيل كجيل الصحابة. ولكن هذا سيفضي بنا إلى القول بأنَّ الدعوة نفسها توقفت منذ أن انتهى جيل الصحابة لأنَّه لم يأت بعده جيلٌ مثله، وهو أمر لا يقول به الداعية الفاضل ولا أحد من المسلمين.

وهناك نصوص تدلُّ على أنَّ وجود شخص الرسول ﷺ كان ضروريًا لتخريج ذلك الجيل، ففي حديث حنظلة الأسدي قال: قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (وما ذاك؟) قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا نراها رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) ثلاث مرات[٢].

«وهذا الذي شعر به حنظلة وأيَّده أبو بكر رضي الله عنه شعورٌ طبيعي، فإنَّ الواحد منّا يعرف من تجربته أنه يقرأ كلامًا فلا يتأثَّر به، فإذا سمعه من إنسان تأثَّر به، فكيف بمؤمن صادق يسمع القرآن والحكمة من في رسول الله ﷺ ويعرف الحوادث والمناسبات التي نزلت فيها كثير من آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ، ويرى هذا الرسول ويخالطه ويصحبه ويفهم عنه من غير ترجمان ولا حاجة إلى شروح وتفاسير، أفيكون حاله كحال إنسان يقرأ القرآن والسنة من الكتب، الفرق كبير بين جيل شاهد رسول الله ﷺ وتربى على يديه، وجيل لم يره ولا رأى من رآه»[٣].

وهناك فرق بين رجل الفطرة (العربي قبل البعثة النبوية) الذي لم يخضع للطغيان ولم يفسد بأسه ولا انتُقص من استقلال شخصيته، ولم تفسده المدنيات بمظاهرها الشكلية وفلسفاتها الجدلية، فإذا جاء الإسلام بالتوحيد الخالص والشرائع والآداب صاغ هذه الشخصية التي دخلت دورة الحضارة الإسلامية فكانت نورًا على نور. وبين الإنسان الذي يعيش في فترة ضعف هذه الحضارة، هنا قد يكون الفرد ذكيًا وصادقًا، ولكن الأخلاق أصابها نوع من العطب، وقد يكون المسلم نقيًا لا ينقصه الإخلاص، ولكنه لا يستطيع مجابهة مشاكله وكيفية حلِّها، ويكون متعلمًا حاصلاً على الشهادات، لكنه تنقصه الفاعلية والإنتاجية[٤].

الخيرية موجودة عند المسلم لم تنقطع، ولكن هناك عوامل كثيرة نابعة من البيئات التي يعيش فيها لها تأثير عليه، وهناك متغيرات كبيرة لها تأثير أيضًا، فالواجب أن نتدرَّج بهذه الشخصية إلى الغايات العليا التي نسعى إليها، لا أن نضع صورة مثالية مطلقة ثم لا تتحقق، أو تتحقق عند أفراد قلائل ثم يعقب ذلك الانكماش والتجمع الهامشي.

قد يريد بعض الكتاب مدح الإسلام وأنه أنقذ العرب من الجهالة والضلالة، لكنه مع هذه النية الحسنة يجرِّد الشخصية العربية يومها من كلِّ الفضائل ليُثبت عَظَمَة الإسلام في بناء الإنسان

(١) معالم في الطريق، ص (١٤-١٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).
(٣) نظرات في منهج العمل الإسلامي، لجعفر شيخ إدريس، بتصرف يسير (٥٣).
(٤) مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، لمحمد العبدة، ص (٥٧).

سؤال لا بدّ منه:

قد يستغرب البعض ويتساءل: لماذا نطرح هذا الموضوع الآن؟ وما الفائدة منه، والناس قد قرؤوا لسيد واستفادوا منه؟

وأقول: نعم سيد قطب مفكِّرٌ كبير وصاحبُ مدرسةٍ أدبية، ولكنَّ الدعوة الإسلامية بحاجةٍ إلى المراجعات بين كلِّ فترةٍ وأخرى، وهذا من النصيحة والعدل والإنصاف، وهذه بعض الأسباب للكتابة حول بعض فصول (معالم في الطريق):

من سنن الله سبحانه أنَّ الأمر العظيم يسبقه تمهيدات ومقدمات، وقد اختار الله سبحانه لنبيه ﷺ هذا الجيل من البشر الذي يملك الاستعداد لحمل هذه الرسالة، وقد يريد بعض الكتاب مدح الإسلام وأنه أنقذ العرب من الجهالة والضلالة، لكنه -مع هذه النية الحسنة- يجرد الشخصية العربية يومها من كل الفضائل ليثبت عظمة الإسلام في بناء الإنسان، ولكن الذي لا يملك الاستعداد للأمر العظيم لا أظن أنه سينقلب بين ليلة وضحاها من شخصية ضحلة إلى شخصية رائدة، ولنتصور أنه لو كان حول محمد ﷺ أناس كبني إسرائيل الذين قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] هل كان لدولة الإسلام أن تقوم؟ وهل كان الإسلام سينتشر في الآفاق؟

إنَّ دراسة الفترة السابقة للبعثة النبوية ضرورية لمعرفة واقع هذه المجتمعات وهذه القبائل التي ستكون هي أول من سيكلَّف بهذه الرسالة وحملها إلى العالم، ومن الملفت للنظر أنَّ ابن إسحاق عندما كتب السيرة قسمها إلى: المبتدأ والمبعث والمغازي، ويقصد بالمبتدأ: ما قبل البعثة.

أعطى سيد رحمه الله للشباب صورةً مثالية، وأنهم -حسب منهجه- هم المجتمع الإسلامي ولو كان عددهم قليلاً، وهم الطليعة الذين سيقودون البشرية، كانت تطبيقات بعضهم لهذا التصور وربما حسب ثقافتهم وقدرتهم -كما شاهدناها- انعزالية استعلائية، وربما يقال: لقد فهموا كلامه بطريقة خاطئة، وقد يكون هذا، ولكن سيدًا عندما أتى بمفاهيم وعبارات قوية جاء بها مجملة حمّالة أوجه، ولم يفسرها ولم يوضح معانيها بالتفصيل.

أراد سيد أن تكون التربية من النبع الصافي قبل أن تختلط الينابيع وتدخل حضارات القدماء وفلسفاتهم وأساطيرهم ولاهوتهم وهذا صحيح، ولكن الصحابة كانوا يتلقون القرآن والسنة مباشرة من الرسول ﷺ، وإذا حصل أي إشكال كانوا يسألونه، أمّا بعد الرسول ﷺ فقد صار مع القرآن والسنة ما بني عليهما مثل الإجماع والقياس ثم الاجتهاد لأهل العلم في واقع الدعوة ومقاصد الشريعة.

مقولة: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» صحيحة من حيث الاعتقاد الجازم بأنَّ هذه الشريعة هي الحق والاستسلام لها، أما في التطبيق العملي فالأمر متعلق بالاستطاعة وعدم وجود الموانع القاهرة

عندما أصرَّ سيد على هذه الحضانة الفكرية كما كانت في الفترة المكية، ثم انتقد أيَّ عمل مرحلي يكون خطوة على الطريق، مما يكثر فيه الخير ويقل فيه الشر، واعتبر ذلك من العوائق لمسيرة الدعوة؛ فالكتابة حول الاقتصاد في الإسلام مثلاً أو مزايا الشريعة في القضية الفلانية، كل هذا لا داعي له، فهذه المشاكل الموجودة لسنا نحن المسلمين سبب وجودها فلماذا نشغل أنفسنا بإيجاد الحلول لها؟! وعندما يقوم المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية فسوف يقبل المسلم كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأنها كلها من عند الله، ولذلك فقول سيد رحمه الله: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» صحيح من حيث الاعتقاد الجازم بأنَّ هذه الشريعة هي الحق والاستسلام لهذا الدين، أما في التطبيق العملي فالأمر متعلق بالاستطاعة وعدم وجود الموانع القاهرة فلا يقال: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» بل يستفاد من الزمن لقطع المراحل الضرورية.

وختامًا:

فإنَّ حركة المراجعة والنقد والتقويم ينبغي أن تستمرَّ، فهي حقٌّ لله تعالى من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيضاح الحق، وحقٌّ للعباد بالنصح لعامة المسلمين ولصاحب الرأي نفسه، مع حفظ مكانة أصحاب الآراء والمواقف العلمية أو الدعوية، دون غمطٍ لحقِّهم، أو مغالاةٍ في نقدهم أو الحكم عليهم، والله من وراء القصد.

قضايا معاصرة

كيف ظلمت الثقافة المجتمعية الأرامل والمطلقات؟

أ. كندة حواصلي(*)

تطالعنا المطالبات بحقوق المرأة من كل جانب، كما تعلو أصوات أخرى تُقلل من شأن هذه المطالبات بالجملة وتعدُّها نوعًا من الغزو الفكري المنحرف والتأثير الثقافي السلبي، ويتساءل العقلاء: هل المرأة مهضومة الحقوق فعلاً؟ وهل ظلمها ما زال قائمًا حتى اليوم؟ وما أبرز ملامحه؟ تحاول المقالة الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال مكونٍ من مكوناته المهمة.

تعدُّ مشاكل المرأة من أكثر المشاكل الاجتماعية التي تتحدث عنها المجتمعات العربية والإسلامية، وتتسبّب في الكثير من الاستقطابات الحادّة، وتُحمل فيها المسؤولية وتُكال التهم وتُرمى حول الظلم الذي تتعرَّض له على الرجل تارةً، وعلى المجتمع تارةً، أو حتى على الدين تارةً أخرى.

وبينما يُنكر البعض وجود مشاكل تعيشها المرأة اليوم أو يقلّلون من حجمها وأهمّيتها، يرى آخرون أنّ وضع المرأة لا يختلف عن وضع الرجل في مجتمعات أنهكتها عقودٌ من الاستبداد والتخلّف والاستعمار، بينما يعتبر البعض أنّ كلّ ظلم تعيشه المرأة ما هو إلا نتيجة مؤامرةٍ خارجيةٍ لإبقاء المجتمعات العربية تحت السيطرة، وقد يرى غيرهم أنّه لا خلاص للنساء من مشكلاتهنّ إلّا بالتمرّد على كلّ الأعراف والتقاليد واستنساخ واقعٍ جديد مستورد كما في الدول الغربية.

ويبدو السؤال الأهمّ غائبًا عن الساحة، هل تعيش المرأة العربية ظلمًا واضطهادًا؟ وهل تتحمل مجتمعاتنا العربية والإسلامية المسؤولية حول وقوع هذا الظلم؟

مع تشعّب مشاكل المرأة وتعقّدها وعدم القدرة على الإحاطة بها في هذا المقال، كان لا بدّ من الإضاءة على زاويةٍ معيّنة تركِّز على شريحةٍ قد تعتبر من الشرائح الأكثر استضعافًا بين النساء، في محاولة لاستعراض واقعهّن الحالي والتنبيه على بعض المشاكل التي يعانين منها(١).

(*) باحثة وناشطة، مديرة الوحدة المجتمعية في مركز الحوار السوري.

(١) تلقي المقالة الإضاءة على بعض الجوانب السلبية التي تؤثر في شرائح المطلقات والأرامل بغية التنبيه عليها، إلا أنّ ذلك لا يعني عدم وجود حالات إيجابية قدمت فيها العائلات دعمًا ومساندة للمرأة واحترمت حقوقها وساعدتها على تجاوز مشاكلها، إلا أنّ هذه الحالات الإيجابية تظلّ أقلّ -فيما يبدو- من الحالات السلبية التي نمت وتزايدت في المجتمعات السورية لاسيما بعد تجارب النزوح والتهجير.

شاعت في مجتمعاتنا أفكارٌ مغلوطةٌ تناقلها المجتمع رجالاً ونساءً، دون التمحيص في مدلولاتها وما فيها من غبن وظلم؛ ففقدان الزوج في أيّ أسرة نتيجة وفاة أو طلاق؛ قد يُلقي على الزوجة وصمةً مجتمعيّةً سلبية، وأحكامًا قاسية، وشكوكًا واتّهامات، ومن ثم وصايةً غير مشروعة

سطوة الثقافة المجتمعية على المطلقات والأرامل:

تمارس الثقافة المجتمعية[1] السائدة حالة من الوصاية على المطلّقات والأرامل بشكل مخصوص، تسعى فيها إلى فرض القيود وإحكام القبضة عليهنّ وحرمانهنّ من بعض حقوقهنّ، وتظهر هذه الوصاية في أشكال عدّة، منها:

الوصمة المجتمعية:

شاعت في مجتمعاتنا العربية المسلمة أفكارٌ مغلوطةٌ تناقلها المجتمع بمختلف شرائحه رجالاً ونساءً، دون التمحيص في مدلولاتها وما فيها من غبن وظلم، ففقدان الزوج في أيّ أسرة نتيجة وفاة أو طلاق؛ قد يُلقي على الزوجة وصمةً مجتمعيّةً سلبية، لا نجدها في الحالة المعاكسة -عند الرجل- وخاصّة في حالات الطلاق.

ولعلّ أشدّ مَن ظَلم الأرامل والمطلقات في هذا الخصوص هم النساء أنفسهنّ، حيث غالبًا ما تطبّق النساءُ أحكامًا قاسيةً على المطلّقات والأرامل، ويتم تصنيفهنّ وكأنهنّ مصدر خطر، أو وسيلةٌ لخراب البيوت والأسر، وكأنّ إحداهنّ ستخطف الزوج من عائلته وتوقع به في شباكها وتشارك عائلته الاهتمام والموارد المالية!

وتختلف أشكال الوصمة الاجتماعية التي تُحيط بالأرامل والمطلّقات من مجتمع لآخر، وقد تكون أقسى مع المطلّقات منها مع الأرامل اللواتي يَنظرُ لهنّ المجتمع بنوعٍ من الشفقة والتعاطف، إلّا أنّه من الشائع أن تُصبح هاتان الشريحتان تحت أنظار المجتمع ومراقبته، تزيدُ حولهما الشكوكُ والاتهاماتُ خاصّة في الجوانب الأخلاقية، حيث يَعتبرُ البعضُ أنّ انحراف الأرملة والمطلقة وجنوحهما عن جادّة الصواب أسهل من غيرهما، فيراقبُ تحرّكاتها وتصرّفاتها وسلوكها وإدارتها لأسرتها وأطفالها.

تقول إحدى الأرامل: «لم أكن أفكّر بالزواج إطلاقًا، بل أردت أن أربّي أولادي وأعوّضهم بعد استشهاد والدهم، لكنّ الحياة في المخيم كانت قاسية عليّ وعلى أطفالي، كان الجميع يراقبني نساءً ورجالاً، وأصبحت مطمع غالبية الرجال ومحلّ خوف جميع النساء، وبدأ الغرباء يتدخّلون في شؤوني عندما أدخل وأخرج أو أسعى لإعالة عائلتي، لم يكن الأمر سهلاً عليّ، ولم أجد مهربًا منه إلّا بأن أقبل أن أكون الزوجة الثالثة لأحد مَن تقدّموا لخطبتي، فقد كانت خياراتي قليلة، وكان هدفي من الزواج أن أحمي نفسي من ألسنة الناس ونظرات الشكّ»[2].

ومن جهة أخرى يُعد الطلاق إخفاقًا كبيرًا في مسيرة حياة المرأة من الصعب تجاوزه اجتماعيًّا، حيث تُحمّل في كثير من الأحيان مسؤولية هدم الأسرة حتى دون معرفة الأسباب التي أدّت إلى ذلك أو الاطلاع عليها، وكأنّها وحدها المعنية بذلك[3]، ويصبح وصف المطلّقة مقرونًا باسمها أو حتى بديلاً عنه، والذي قد يشير بشكل ضمنيّ في بعض الأحيان إلى أنّها فاشلة لم تحسن المحافظة على زواجها، وقد تصبح محلّ نبذ اجتماعي خوفًا من أن تشجّع نساءً أخريات على الطلاق.

وعلى نطاق آخر تواجه الأرامل في بعض الأحيان وصمةً من نوع مختلف، فقد تُقرن في بعض الأحيان بالشؤم أو تُتّهم بأنّها تسبّبت بهلاك زوجها، خاصّة إن تكرّرت حالة موت أزواجها، وقد يُطلق عليها في بعض البيئات السورية أنّ «كَعْبَهَا مُدَوَّر» وفي ذلك تحذير لمن قد يفكّر في الزواج بها مرّة أخرى، وأنّه قد يواجه مصير أزواجها السابقين.

وقد تتسبّب هذه النظرة المجتمعية السلبية في ردّة فعل عنيفة عند بعض الأرامل والمطلّقات، تظهر على شكل حالة من التمرّد أو رغبة في إثبات الذات أو حتى تحدّي المجتمع وأعرافه، وقد تؤدّي ردّة الفعل هذه إلى نتائج إيجابية تحاول فيها

(١) تعكس الثقافة المجتمعية ظروف وبيئة الشعوب، ويقال عنها «مجتمعية» لأنّها تضمّ الإطار السلوكي والقيمي للمجتمع، وتعبّر عن تاريخ وتطور المجتمعات وتعكس النشاطات الموجودة فيها.

(٢) من مقابلة أجريتها في أيار ٢٠٢١م.

(٣) المُطلقة ونظرة المُجتمع.. لماذا يخالف المسلمون إرثهم الديني والتاريخي؟ موقع ميدان، تاريخ النشر ٢٠١٧/١١/٦م،

المرأة تعويض تجربتها المتعثّرة من خلال متابعة دراستها أو الزواج أو العمل سواء كان بهدف تأمين موردٍ مادّي أو تحقيق نجاح يعوّضها ويغير نظرة المجتمع لها[1]، وقد تدفع بها في أحيانٍ أخرى إلى نتائج سلبية وتورّطها في سلوكيات غير مقبولة.

فرص زواج غير متكافئ:

تعامِلُ الثقافةُ المجتمعيّة السائدة المطلّقة والأرملة كإنسانة من الدرجةِ الثانية، وخاصة في موضوع الزواج، إذ لا يفترض أن تتنعم بحقوقها -كالعازبة- وتكمل حياتها بشكل طبيعي، فغالبًا ما تلوكها الألسن إن رفضت عروض الزواج التي تأتيها إن كانت غير مناسبة أو متكافئة، حيث تتُهم بأنّها تفوّت فرصًا أكثر مما تستحقه، قد لا تعود مرّة أخرى.

تقول إحدى النساء اللواتي التقيتهنّ: «تقدّم لخطبتي شاب أعزب يقاربني في العمر، وأنا مطلّقة في العقد الثالث من عمري أرعى ابنتي الصغيرة، وقد تعرّفنا عن طريق العمل وتقدم فورًا لخطبتي، ولكني لم أستطع أن أتقبّل أو أن أفهم حجم الهجوم الذي حصل عليّ، حيث وجد المجتمع حولي أنّ هذه الفرصة أكثر مما أستحقه، وبدأت الشائعات تطالني وتنسج قصصًا وهميّة كيف أنّي خدعت هذا الشاب وأوقعت به، وبدأ البعض يتحدّث مع عائلة خطيبي التي لم تكن مقتنعة أساسًا بهذا الزواج وتحريضهم على إنقاذ ابنهم من براثني».

وتتحمّل النساءُ بالدرجة الأولى شيوع هذا النمط من التفكير الذي يستهدف نساءً مثلهن، حيث تعامل المطلّقات والأرامل في بعض الأحيان كما تُعامل «البضائع المستعملة»، فترفُض الكثيرُ من الأمهات أنْ تُزوّج ابنها المطلّق أو الأرمل بامرأة سبق لها الزواج، وتُصرُّ على أن تختارَ لهُ بكرًا لتقومَ على شؤونهِ وشؤون أطفالهِ إنْ وُجدوا، حتى لو كان فارق العمر بينهما كبيرًا، لأنّ المرأة التي سبق لها الزواج غالبًا ما يُشَكَّكُ في إخلاصها للزوج الجديد، ويُتَوقع أن تعقد في ذهنها مُقارناتٍ دائمًا، أو أنّها لن تكون مُطيعة أو مرنة لأنّها تحملُ آثارَ تجربةٍ سابقةٍ عاشتها.

ومن جهة أخرى: قد يُطبّق المجتمع قيودًا مختلفةً على الأرامل، حيث يُتوقّع منهنّ أن يسهرنَ على تربية أطفالهن الأيتام والتضحية من أجلهم، وذلك بالامتناع عن الزواج مخافةَ أن يتعرض هؤلاء الأيتام للظلم والحَيف من قِبَل زوج الأمّ الذي دأبَ الإعلامُ على تصويرهِ بمظهر الظالم القاسي، أو يتعرّضوا للإهمالِ من قبل الأمِّ التي ستلتفتُ لمسؤولياتها الجديدة وقد تُرزق بأطفالٍ جدد فتقصّر مع أطفالها الأيتام!

كما تواجه الأرملة أو المطلّقة في بعض الأحيان شروطًا مُجحفة عند الزواج مرّة أخرى، فأحيانًا يكون الفارق العمري كبيرًا، وأحيانًا يكون الزواج بمهرٍ يَسير وقد تُحرم منه، وأحيانًا أخرى قد يشترط عليها الزوج الجديد أن تترك أولادها تحت رعاية جهة أخرى كعائلتها أو عائلة زوجها؛ فهو لا يرغب بتحمّل مسؤوليتهم، أو قد يَعِدُ برعايتهم في بداية الزواج لكنّه يتراجع لاحقًا ويضيّق على زوجته لإجبارها على التخلّي عن أولادها.

احترم الإسلام المرأة واعتبرها إنسانًا كامل الأهلية والحقوق، سواء كانت عازبة أو مطلقة أو أرملة، بل جعل إعلان موافقتها على الزواج شرطًا في صحّته، وفي ذلك احترامٌ لقرارها ورغبةٌ في التأكُّد من أنّ زواجها نابعٌ من قرارٍ وقناعةٍ ذاتيةٍ دون إكراه

غياب الرعاية والدعم العائلي:

تتعامل بعض الأسر مع حوادث طلاق بناتها أو ترمّلهنّ وكأنّها فاجعة حلّت بالمرأة أو عقاب حلّ بالعائلة من الصعب الخلاص منها، ففي بعض الحالات ترفض عائلة الزوجة استقبال ابنتها التي تعاني المشاكل، وتطلب منها الصبرَ والتحمّل حتى لو كان الزوج سيّء الخلق أو صعب العشرة أو مقصّرًا في مسؤولياته.

وقد تكون أسبابُ هذا الموقف ماديّةً، فتعتبر العائلة أنّ طلاق ابنتهم أو ترمّلها يعني التزامات مادية إضافية عليهم التهرّب منها، فبدل أن تقدّم العائلةُ الدعم والمساندة النفسية لابنتهم تصبح أسرتها مصدر ضغط وتهديد، أو قد ترفض العائلة استقبال ابنتها الأرملة أو المطلّقة وأطفالها خشية أن تتهرّب عائلة الزوج من كفالة الأطفال الماديّة، وتجبر عائلة الزوجة على الإنفاق عليهم.

(١) المُطلقة ونظرة المُجتمع.. لماذا يخالف المسلمون إرثهم الديني والتاريخي؟ موقع ميدان، تاريخ النشر ٢٠١٧/١١/٦م،

وفي أحيان أخرى قد تقبل بعضُ الأسر عودةَ الابنة مطلّقة أو أرملة لكن دون أولادها! وفي ذلك محاولة للتهرّب من المسؤوليات المادية والمعنوية تجاه هذه الأم وأطفالها من جهة، ومحاولة أخرى لزيادة فُرَص زواج هذه الابنة مرّة أخرى؛ فوجودُ الأطفال تحت رعايتها سوف يقلّل فرصها في الزواج.

وإلى جانب ذلك كلّه، وبدل أن تكون عائلة المطلّقة والأرملة اليدَ الحنونَ التي تخفّف عنها ما تعيشه، تمارس العائلة ضغوطات إضافية على هذه الابنة، فتضع القيودَ على خروجها أو عملها أو تحرّكاتها، وتُذكّر بشكل دوري بأنّها مطلّقة أو أرملة، وأنّها قد تجلب الكلام والاتهام للعائلة بأكملها وتلطّخ سمعتهم، أو يتم إجبارها على خدمة كافّة أفراد الأسرة وعائلاتهم وخاصّة إن كانت الأسرة تعيش مع أبنائها المتزوّجين في منزل واحد.

الضغط عبر ورقة الأطفال:

يصبح الأطفال في بعض الأحيان ورقة للتجاذب والضغط، سواء بين المطلّقة وزوجها السابق، أو بين الأرملة وعائلة زوجها المتوَفّى، يحاول فيها كلّ طرف فرض شروطه أو الضغط على الطرف الآخر لتحقيق مصلحته، دون النظر إلى عواقب هذه التجاذبات على صحّة الأطفال النفسية والجسدية والتربوية، ومستقبلهم.

فقد تصبح حضانة الأطفال محلّ نزاع أو يُلوَّح بها في حال فكّرت المطلّقة أو الأرملة بالزواج مجدّدًا، حيث إنّ تفكيرها في متابعة حياتها قد يعني في حالات خسارةَ أولادها وإثارة نقمتهم عليها مستقبلاً وإظهارها بمظهر الأم المقصّرة التي تخلّت عن تربية أطفالها حتى تعيش حياتها الخاصة.

وقد تفرضُ أسرةُ الزوج على الأرملة الزواجَ من أحد أفراد العائلة؛ من أجل المحافظة على الأولاد والقيام برعايتهم دون وجود حرج شرعي، وقد تُجبر في كثير من الأحيان -تحت وطأة التهديد بخسارتها أطفالها أو إيقاف الدعم المالي- على القبول بهذا الزواج الذي قد لا يكون مناسبًا لها نفسيًّا أو ماديًّا أو اجتماعيًا.

تقول إحدى الأرامل اللواتي التقيتهنّ: «لم يكن أمامي خيار آخر، إمّا أن أخسر أطفالي وأتخلّى عن تربيتهم لجدّتهم العجوز، أو أن أقبل بالزواج من الأخ الأكبر لزوجي المتوَفّى وذلك تحت حجّة أنّه يريد أن يقوم على تربية أبناءِ أخيه اليتامى بحرّية، لم أكن أستطيع أن أفكّر فيه كزوج، خاصّة أنّه متزوج ولديه عدد كبير من الأولاد، ولم يكن يولي أولاده الاهتمام والتربية المطلوبة.

لقد ضغطت عليّ عائلة زوجي، وضغطت عليّ عائلتي، ورفضت استقبالي مع أطفالي أو التكفّل بمصاريفي، فما كان منّي إلّا أن وافقت مرغمة وسكنت معهم في البيت نفسه، لأدخل في دوّامة جديدة من المشاكل مع زوجته الأولى وأبنائه، الذين تعاملوا معي وكأنّي سارقة مخرّبة دمّرت عائلتهم».

وفي أحيان أخرى قد تُحرم الأرملة من التصرّف في ميراث زوجها، بحجّة المحافظة على أموال اليتامى، حيث تعيش هذه العائلات التي فقدت معيلها في ضيق وشظف عيش تفرضه عائلة الزوج لضمان تحكّمها بالأرملة وأولادها، أو مخافة أن تحصل الأرملة على هذه الأموال فتتزوّج مرّة أخرى وتضيّع حقوق أبنائها وتذهب أموال العائلة إلى رجل غريب!

> **ترتبط الثقافة المجتمعية بالقيم الناظمة لهذا المجتمع، وبالنظر إلى أن مجتمعاتنا عربية مسلمة: فيُفترض أن تكون القيم العربية والإسلامية حاضرةً بقوة في ذهنية هذه المجتمعات؛ تتمثل بها أفكارًا، وتنعكس على حياتها سلوكًا ينظم كلّ أشكال علاقاتها**

الثقافة المجتمعية ظالمة أم مظلومة:

ترتبط الثقافة المجتمعية بالقيم الناظمة لهذا المجتمع، وبالنظر إلى أنّنا نتحدث عن مجتمعات عربية ومسلمة: فيُفترض أن تكون القيم العربية والإسلامية حاضرةً بقوة في ذهنية هذه المجتمعات؛ تتمثل بها أفكارًا، وتنعكس على حياتها سلوكًا ينظم كلّ أشكال علاقاتها.

وبالعودة إلى هذه الأفكار التي انتشرت حول المطلّقات والأرامل وما رافقها من سلوكيات نظمت العلاقة مع هذه الشريحة، نجد أنّ هذه الأفكار والسلوكيات بعيدة كلّ البعد عن القيم العربية

الأصيلة التي اشتهر بها العرب، كالشهامةالعدل ورفض الظلم، والغيرة على المحارم.

كما أنّ هذه الأفكار هي أشدّ بعدًا عن القيم الإسلامية التي رسمت قواعد التعامل في العلاقات الاجتماعية الناظمة للمجتمع، وبيَّنت حدود التعامل مع هذه الشرائح بما يضمن حقوقها، ويضمن تماسك المجتمع وصحته وسلامته، بل إنّ القيم الإسلامية تبدو غائبة أو مشوّهة حلّت محلّها بعض القيم والمفاهيم التي لا تمتّ للدين الإسلامي بِصِلةٍ أو أنّها في بعض الأحيان تخالف ما نصّت عليه تعاليم الشريعة الغرّاء حول تنظيم العلاقات المجتمعية لا سيما ما يخصّ النساء.

لقد شرع الإسلام الزواج وسيلة لبناء الأسرة التي تشكّل المجتمعات، واعتبره ميثاقًا غليظًا فصّل فيه في حقوق وواجبات كلا الطرفين بقواعد واضحة، وشرع أيضًا الطلاق حلاً واقعيًا يُنهي الحياة الزوجية بين طرفين لم تعد الحياة بينهما ممكنة، وجعل منه أبغض الحلال في إشارة إلى ضرورة التريّث وعدم اللجوء له إلا بعد استنفاد فرص الإصلاح كافّة.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقد ضمن الإسلام للمطلّقات والأرامل الحقوق، فجعل المرأة غير مُلزَمة بنفقة نفسها ولا بنفقة أولادها مدّة عدّة الطلاق الرجعي، وجعل عائلتها مسؤولةً عن نفقتها بعد انتهاء عدة الطلاق أو في عدّة الوفاة، وشجّع سائرَ المسلمين على كفالة الأيتام وحضّ عليها ووعد فاعلها بعظيم الأجر والثواب في مشاركة لرفع العبء المادي عن الأرملة.

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما[١]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وأحسبه قال: وكالقائم الذي لا يَفْتُر وكالصائم لا يُفْطِر)[٢].

قدّم مجتمع الصحابة نموذجًا ناصعًا لعلاقة المرأة بالمجتمع، فلم تكن المطلّقة أو الأرملة تجد حرجًا في الزواج مرة أخرى، فكانت تتزوج أكثر من مرّة، وترعى أولادها ولا تطالب بالتخلي عنهم، وكان الأزواج يقدّمون الرعاية النفسية والتربوية والمادية لأطفالها

وفي الوقت نفسه: احترم الإسلام المرأة وجعلها إنسانًا كامل الأهلية والحقوق، سواء كانت عازبة أو مطلقة أو أرملة، بل جعل إعلان موافقتها على الزواج شرطًا في صحّته، وفي ذلك احترام لقرارها ورغبة في التأكد من أنّ زواجها نابع من قرار وقناعة ذاتية دون إكراه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تُنكح الأيِّم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن)، قالوا يا رسول الله: وكيف إذنها؟ قال: (أن تسكت)[٣].

وقد قدّم مجتمع الصحابة نموذجًا ناصعًا لعلاقة المرأة بالمجتمع، فقام بتسهيل وتيسير الزواج، فلم تكن المطلّقة أو الأرملة تجد حرجًا في الزواج مرة أخرى، بل كانت المرأة تتزين للخطاب بمجرد انقضاء عدّتها، وتتزوج أكثر من مرّة، وترعى أولادها ولا تطالب بالتخلي عنهم، وكان هؤلاء الأزواج يقدّمون الرعاية النفسية والتربوية لأطفالها كما يقدّمون الرعاية المادية، وكان للعديد منهم الفضل في تربية هؤلاء الأيتام وتنشئتهم تنشئة صالحة.

لقد تزوج الرسول ﷺ من أرامل ومطلّقات ولم يتزوج بكرًا سوى السيدة عائشة بنت أبي بكر ﷺ، فالسيدة خديجة ﷺ سبق لها الزواج مرتين قبل

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩).

سطوة الثقافة المجتمعية الظالمة للأرملة والمطلقة

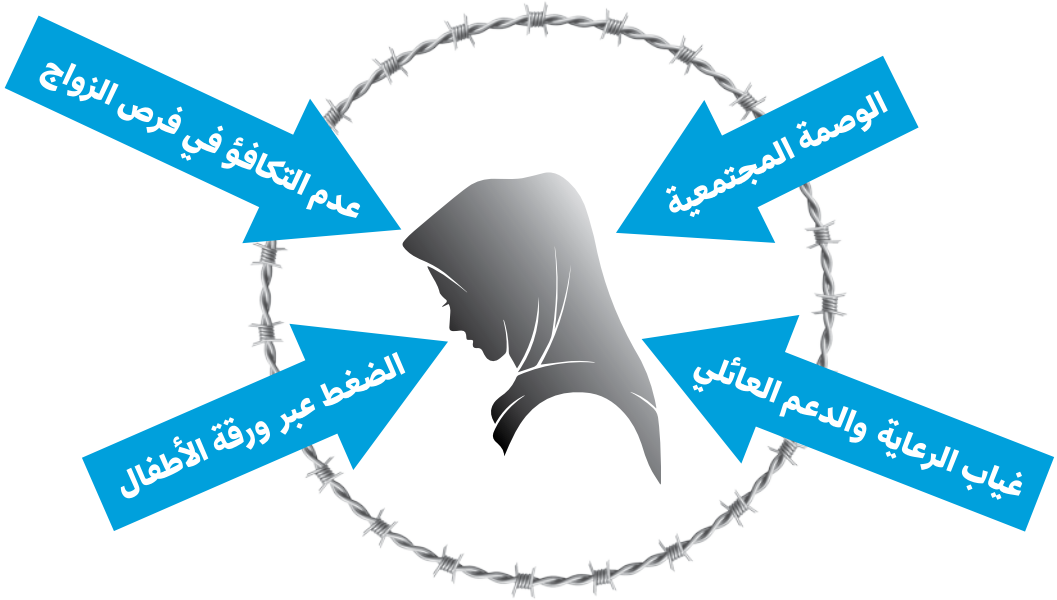

زواجها بالنبي ﷺ، ولها أولاد من كلا الزواجين عاشوا وتربّوا في كنف النبي ﷺ لسنوات[١].

وكذلك حال أمهات المؤمنين كالسيدة زينب بنت خزيمة، والسيدة حفصة بنت عمر، والسيدة أم سلمة، والسيدة ميمونة بنت الحارث، فقد تزوّجهن النبي ﷺ بعد وفاة أزواجهن، والسيدة زينب بنت حجش التي تزوجها النبي ﷺ بعد طلاقها من زوجها زيد بن حارثة، دون أن يكون هناك أي حرج أو انتقاص من مكانة المرأة وحقوقها.

وقد انتهج الصحابة أيضًا النهج نفسه، فالصحابية عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل تزوّجها عبدالله بن أبي بكر الصديق، فلمّا مات عنها شهيدًا بادر بالزواج منها الفاروق عمر، ثم لمّا مات عنها شهيدًا بادر بالزواج منها حواري النبي ﷺ الزبيرُ بين العوام فقتل شهيدًا رضي الله عنهم أجمعين، وقد انتشر عنها قول يرفع من مكانتها: «من أراد الشهادة فعليه بعاتكة»[٢].

وكذلك أسماء بنت عُميس التي تزوجت من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأنجبت له البنين، ثم تزوجت بعد استشهاده أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأنجبت له محمدًا، ثم تزوجت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والذي كان يرعى ويلاعب أبناءها من أزواجها السابقين.

ومن جهة أخرى تعامل مجتمع الصحابة مع الطلاق بموضوعية، واحترم رغبة النساء في طلبه، ولم يمارس عليهن ضغوطًا للاستمرار في زواج لا يناسبهن، كما هو حال زوجة ثابت بن قيس حين أرادت الخلع من زوجها فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (أتردّين عليه حديقته)، قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: (اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة)[٣].

وكذلك حادثة بَريرَة -الأمة المملوكة- التي أرادت أن تتحرّر من رقّ العبودية، فلما أُعتقت خُيرت في زوجها مغيث -وهو عبد مملوك- فاختارت نفسها، فاستشفع مغيثٌ بالرسول ﷺ فشفع له عندها، فقال لها الرسول ﷺ: (لو راجعتِه)، قالت: يا

(١) تزوجت السيدة خديجة رضي الله عنها من هالة بن زرارة بن النباش التميمي الذي توفي وترك لها ولدين، ثم تزوجت من بعده عتيق بن عائذ المخزومي، ثم طلقها وقيل: بل تُوفّي عنها بعد أن رزقت منه ببنت اسمها هند، المصدر كتاب «السيرة العطرة لأم المؤمنين خديجة»، تأليف محمد سالم الخضر، ص (١٥).

(٢) الصحابية التي استشهد كل من تزوجها، موقع إسلام ويب، تاريخ النشر ٢٠٠١/١/١٥م.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧٣).

رسول الله، تأمرني؟، قال: (إنما أنا أشفع)، قالت: لا حاجة لي فيه[1].

ما الذي تغير؟

من الواضح أنّ القيم الاجتماعية في مجتمعاتنا الحالية تبدّلت أو تشوّهت بفعل الكثير من العوامل، وابتعدت عن جوهر المصدر الذي تستند إليه، وانعكس ذلك على سلوكيات الأفراد بشكل واضح، فالنظرة المجتمعية للمرأة لم تعد كما حدّدها لها الشرع الإسلامي: (إنسان كامل الحقوق والأهلية)، خاصّة وإن تعرّضت لظروف جعلتها أكثر ضعفًا، بل أصبح من السهل أن يقوم المجتمع بظلمها تحت ستار العادات والتقاليد.

لقد أسهمت المشاكل المتفاقمة في مؤسسة الزواج، بالإضافة لعوامل أخرى إلى تغيير الصورة الذهنية والثقافة المجتمعية، فلم تعد ثقافة تكوين الأسرة ورعاية أفرادها هي المقصد الأهم للزواج، بل بات وسيلة عند البعض لتحقيق أغراض شخصية مع التنصّل من بقية المسؤوليات، فغلبت ثقافة البحث عن صغيرات العمر أو العازبات، أو الأرامل والمطلقات ممن تتوفر فيهن صفات الجمال فحسب عند الكثير من الباحثين عن التعدد، كما ظهر اشتراط تفريط الأرامل والمطلقات بأطفالهن من زواجهن السابق؛ فهذا من أوضح الأمثلة على ابتعاد المجتمع عن مقصد الشرع الإسلامي في احتواء الأسر الضعيفة ورعايتها.

كما أسهم الإعلام بترسيخ الكثير من الصور النمطية في أذهان العامة، حين ركّز على الجوانب السلبية بشكل مفرط وأهمل الجوانب الإيجابية لهذه المسائل، وشيطن فكرة التعدّد وربطها بحالة الظلم التي تقع على الزوجة الأولى، وعمل على تصوير الزوجة الثانية مخادعة لعوبًا تسعى لإفساد عائلة الزوج والاستيلاء على ماله، فغيّر القناعات المجتمعية وسوّق لأفكار ومفاهيم جديدة غريبة عن المجتمع.

نعم، لقد ظلمت الثقافة المجتمعية النساء عندما تركت منظومة القيم الإسلامية الراسخة إلى قيم وأفكار مشوّهة، وظلمتها مرّة أخرى عندما تجاهلت هذا الظلم الذي وقع على شرائح منها وطالبتها بالصبر والتخلّي عن حقوقها، وظلمتها مرّة ثالثة عندما تقاعس المصلحون الاجتماعيون والدعاة عن توضيح المكامن التي خالفت فيها الأعراف قيم الشرع الحنيف، وتركوا النساء فريسة لظلم القريب والبعيد دون أن يمدّوا لهنّ يدَ العون أو المساعدة.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

تأصيل

الغلو في فهم مقاصد الشريعة وأثره في الانحراف الفكري

د. جمال الفرّا (*)

الغلو في الدين مذموم بالعموم، سواء كان ذلك في جانب الإفراط أو التفريط، والمقاصد الشرعية من جملة ما حصل فيه الغلو في الاتجاهين، فأهملها قوم ولم يعيروها حقها من النظر والاعتبار الشرعي، فوقفوا عند ظواهر النصوص وجعلوها عبارات جامدة لا روح لها، وغلا فيها قوم فحمَّلوها ما لا تحتمل، وعارضوا النصوص الشرعية القطعية بمقاصد ظنية، أدت في النهاية إلى مناقضة كلِّيات ومسلَّمات لا خلاف فيها، وهذه المقالة تتحدث عن الصنف الثاني من الغلو في المقاصد.

مقدمة

مقاصد الشريعة الإسلامية هي روح الأحكام. وحقيقتها: معرفة الغاية من التشريع والمصلحة المعتبرة التي تكمن وراء الحكم الشرعي، فأحكام الشريعة لها مقاصد وغايات مرجوّة ولم تأت عبثًا.

وللشريعة مقاصد كلّية مثل الرحمة واليسر، وللأحكام مقاصد جزئية؛ فحينما أوجبت الشريعة الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة غير المملوكة للإنسان؛ كان من مقاصد ذلك: حفظ العورات، ولئلّا يقع نظر القادم على ما لا يُحبُّ صاحب البيت أن يُطلع عليه، وقد جاء في الحديث: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[1].

ومعرفة المقاصد تُعين الداعية والمفتي والمتصدِّر للشأن الإسلامي العام في وظيفته المنوطة به شرعًا، كما أنَّ الخروج عن مقاصد الشريعة يؤدّي إلى خللٍ في الفتوى وفي تطبيق الأحكام، وتَضعُفُ ثمرةُ العمل بها.

والخروج عن المقاصد يكون بأحد وجهين:

» **إهمال المقاصد:** وحينها يكون توضيح علم المقاصد وتطبيق قواعده وأسسه حاجة ملحّة للعلماء في مواجهة التعصّب الذي يؤدّي إلى مناقضة القصد من تشريع الأحكام، وضروريًّا لتجنّب الوقوف المجرّد عند ظواهر النصوص.

(*) خطيب وداعية.

(١) صحيح البخاري (٦٢٤١)، صحيح مسلم (٢١٥٦).

» **الغلو في تقرير المقاصد:** وذلك من خلال تحميل المقاصد ما لا تحتمله تنظيرًا وتطبيقًا، ومن آثاره: ظهور فتاوى تناقض المبادئ والمسلّمات الشرعية للإسلام؛ باقتحام مجالها دون ضوابط ممن ليس أهلاً لذلك.

والوجه الثاني هو ما سيتناوله هذا المقال.

معرفة المقاصد تُعين الداعية والمفتي والمتصدِّر للشأن العام في وظيفته المنوطة به شرعًا، كما أنَّ الخروج عن مقاصد الشريعة يؤدّي إلى خللٍ في الفتوى وفي تطبيق الأحكام، وتَضعُفُ ثمرةُ العمل بها

المقصود بالغلو في المقاصد:

الغلوُّ في مقاصد الشريعة: هو مُجاوزة المعايير والضوابط والحدود التي اتَّفق عليها أهلُ العلم لتقرير الأحكام الشرعية بزعم أنّها من مقاصد الشريعة.

وهذا الغلوُّ يستخدمُه أهل الأهواء في بثّ سمومهم والطعنِ في المسلّمات الشرعية والكلّيات المتّفق عليها.

وقد أدّت ظاهرة الغلو -سواء في فهم مقاصد الشريعة الإسلامية ودعوى تجديدها أو في مجالات تطبيقها- إلى الانحراف الفكري الظاهر في هذا الزمان، ومن مظاهرها: دعوى تطوير النظر في مقاصد الشريعة شكلاً ومضمونًا، والخلل في فهم غائية الشريعة والتأثر بالواقع، والجموح إلى التغيير دون ربط التغيير بالضوابط والقواعد المقاصدية.

أسباب الغلو في فهم مقاصد الشريعة:

السبب الأول: سلوك سُبُل غير علمية بدعوى تطوير النظر في مقاصد الشرعية:

أ. الأثر من حيث المضمون:

أدّى هذا -من حيث المضمون- إلى تأويل المقاصد، والشطط في فهمها، والتعدّي على ثوابت شرعية لا تحتمل هذا التأويل، ومن الأمثلة على ذلك:

١. **في مقصد حفظ الدين:** ذكر أهل العلم أنَّ مراعاة حفظ الدين في جانب العدم[١] تكون بما يدرأ عنه الاختلال الواقع أو المتوقع فيه كما ذكر ذلك الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات[٢]، وكذلك في ردّ كل ما يخالف الدين من الأقوال والأفعال، ومن الأحكام التي تندرج تحت ذلك: قتال الكفار والذود عن حمى الإسلام، وإقامة الحدّ على المرتدّ عن الإسلام حتى لا يُفتح الباب للعبث بدين الله.

ومن الغلو في هذا الباب: تعظيم الحديث عن مقصد الحرّية، وما ينتج عنه من الدعوة إلى إلغاء حدّ الردّة والطعن في أدلّته بدعوى مخالفته لتحقيق مقصد الحرّية؛ في حين أنّ دعواهم هذه في الحقيقة تناقض مقصد حفظ الدين، فحدّ الردّة جاء لحفظ الدين من الزوال والاختلال، وشُرع لضمان عدم التلاعب بالدين، قال ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه)[٣]، فقتلُ المرتدّ يمنع شره، ويزجرُ غيره.

والغلو في اعتبار مقصد الحرّية ممن زعم تطوير المقاصد يؤدّي إلى السماح لغير المسلمين بالدعوة لدينهم بين المسلمين؛ فهي في حقيقتها دعوة للردّة في بلاد المسلمين، انطلاقًا من مقصد الحرّية الدينية كما يزعمون، ومن باب المعاملة بالمثل؛ لأنهم يسمحون للمسلمين في بلاد غير المسلمين بالدعوة لدينهم!

من صور الغلو في المقاصد تعظيم الحديث عن مقصد الحرّية، وما ينتج عنه من الدعوة إلى إلغاء حدّ الردّة والطعن في أدلّته؛ لأنَّ هذه الدعوة في الحقيقة تناقض مقصد حفظ الدين، فحدّ الردّة جاء لحفظ الدين من الزوال والاختلال

٢. **وفي مقصد حفظ المال:** فإنّ حفظ المال من جانب العدم يكون بالدفاع عنه بدفع الصائل، وإقامة الحدِّ على السُرّاق، جاء في فتح الباري: «صان الله الأموال بإيجاب قطع يدِ سارقها، وخصّ السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدّد العقوبة

(١) حفظ الدين يكون بجانبين: الإيجاد ويكون بإثبات ما يقيمه ويرسّخ أسسه وقواعده. والعدم ويكون بنفي كل ما يخالفه وينقضه.
(٢) الموافقات، للشاطبي (٦/٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٧).

فيها ليكون أبلغ في الزجر»[١]. بينما اقتصر من أخذ بدعوى تطوير المقاصد بمجرّد حفظ المال بالتنمية الاقتصادية وتطوير المال دون اعتبار لهذه المسائل.

ب. الأثر من حيث العدد:

كما أدّى -من حيث العدد- إلى الزيادة في المقاصد الضرورية دون ضوابط: فقد مشى عامّة العلماء المتقدّمين على القول بمقاصد خمسة ضرورية وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «اتفقت الأمّة -بل سائر الملل- على أنَّ الشريعة وُضعت للمحافظة على هذه الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»[٢].

وقد ظهرت الدعوة إلى إضافة مقاصد جديدة إلى هذه الخمسة مراعاةً (لمبادئ الإنسانية) دون النظر إلى اعتبارها الشرعي من استقراء الأدلّة والنظر في أحكام الشريعة، كالدعوة إلى إدخال مبادئ مثل الحرية والإخاء والمساواة والتكافل وحقوق الإنسان، إلى أن زادها بعضهم عن عشرين مقصدًا.

بينما يرى البعض أنّه لا يمكن ادّعاء الحصر في مقاصد الشريعة، فالمقاصد كالمسائل لا يمكن حصرها، وأضافوا عناوين مفتوحة وجعلوها مقاصد مثل: السلام العالمي، والتقدّم الاقتصادي، والبحث العلمي، والحقوق الدستورية، وحفظ وتطوير الكرامة والرفاهية، والعلم والإبداع والاستقلالية والتطور والمساواة والحرّية والعدالة والأخوّة والحبّ والتضامن والتنوّع؛ وفيما يخص علاقة الإنسان بغيره أضافوا مبادئ مثل: الصحّة والذكاء والإنجاب والعمل والانتماء والجيرة، أمّا المقاصد المتعلّقة بالمجتمع فمنها: حفظ وتطوير سيادة القانون والاستقلال والشورى والتعدّدية والتطور والثقافات والأديان والتراث.

وهذا الغلو في الزيادة على الكليات الخمس إلى غيرها دون اعتبار الضوابط الشرعية[٣] أدّى إلى لون من الانحراف الفكري استغلّه أصحاب الهوى وأتباع المذاهب الحداثية لمحاولة التغيير في مسلّمات الشرع.

إنّ الزيادة على المقاصد الخمسة لا تكون بمجرّد الرأي والتشهّي ومراعاة التوجّهات الدولية دون تحقّق شروط اعتبارها مقصدًا.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «فعليه – الباحث في مقاصد الشريعة - أن لا يعيّن مقصدًا شرعيًا إلا بعد استقراء تصرُّفات الشريعة في النوع الذي يريد انتزاع المقصد الشرعي منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه ليستضيء بأفهامهم، وما حصل لهم من ممارسة قواعد الشرع»[٤].

ومن أمثلة الزيادة غير المنضبطة في المقاصد: ما ذكره بعضهم من أنّ ربا البنوك ينبغي أن يكون حلالاً بدعوى مقصد حفظ الدولة؛ فالدولة هي التي تطرح استثمار المال وتعطي نصيبًا محدّدًا للأفراد لاستمرار بقاء الدولة؛ فينبغي تجويزه.

لكن هذا الطرح يخالف مُحرَّمًا تحريمًا قطعيًا ألا وهو الربا، سواء كان من خلال الدولة أو من الافراد، كما أنّه يناقض مقصدًا شرعيًّا كلّيًا معتبرًا في المحافظة على المال من خلال تحريم الربا، ثم إن بقاء الدولة ليس مقصدًا مستقلاً حتى يُضاف إلى المقاصد الضرورية.

> **الغلو في الزيادة على الكليات الخمس دون اعتبار الضوابط الشرعية أدّى إلى لون من الانحراف الفكري استغلّه أصحاب الهوى وأتباع المذاهب الحداثية لمحاولة التغيير في مسلّمات الشرع**

السبب الثاني: الخلل في فهم الغائية في مقاصد الشريعة:

فالشريعة مغيّاة بمعنى أنَّ أحكامها لها علل وليست عبثًا، وهذا مقتضى الحكمة الإلهية؛ فاسم الله (الحكيم) يقتضي أنّ شرعه سبحانه بِمُجمَله وتفصيلاته لا يخلو من غاية، وقد تظهر الغاية من التشريع جليّة بالنصّ، فحرمة شرب الخمر لإسكارها العقل، وعلّة تحريم الخمر الإسكار، ومقصد تحريم الخمر درء المفسدة عن العقل.

(١) فتح الباري (٩٨/١٢).
(٢) الموافقات، للشاطبي (٣١/١).
(٣) مثل أن تكون المقاصد: ضرورية، وكلية، وقطعية، ومطلقة، وعامة، ودائمة، وثابتة، وظاهرة، ومنضبطة، ومُطَّرِدَة.
(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية، ص (١٣٨).

وقد تخفى الغاية من تشريع الأحكام أو العبادات فتحتاج إلى بحث واستنباط، وقد تبقى خفيّة وإن اجتهد الناس في استنباط الحِكمة منها، لكن تبقى غاية التعبّد لله تعالى بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه؛ فحين قال الفقهاء مثلاً: إنّ حكمة العدَّة هي براءة الرحم، لم يجوِّزوا زواج المعتدَّة في عدّتها حتى لو استيقنت براءة الرحم بالتحاليل الدقيقة والأجهزة الحديثة؛ لأنَّ الأصل في هذا الحكم التعبدُ لا التعقّل، فلا تكون الحكمة المظنونة هنا مقصدًا، قال الشاطبي: «فإنّا نعلم أنّ الشروط المعتبرة في النكاح من الولي والصداق وشبه ذلك لتمييز النكاح عن السفاح، وأنّ فروض المواريث ترتّبت على ترتيب القربى من الميت، وأنّ العِدَد والاستبراءات المرادُ بها استبراء الرحم خوفًا من اختلاط المياه، ولكنّها أمور جُملية ... لا يُقضى بصحة القياس على الأصل فيها؛ بحيث يقال: إذا حصل الفرق بين النكاح والسفاح بأمور أُخر مثلاً لم تشترط تلك الشروط، ومتى عُلم براءة الرحم لم تُشرع العدَّة بالأقراء ولا بالأشهر، ولا ما أشبه ذلك»[1].

فمن الغلوّ في فهم الغاية هنا: الاقتصار في العدّة على مقصد استبراء الرحم، والاستعاضة عن القروء أو الأشهر بالفحوصات الطبية!

فالعدّة من المحكمات لا يصحّ الاجتهاد في عدد أيّامها، قال القرافي: «العِدَّةُ يَغلبُ عليها شائبةُ التعبُّدِ من حيث الجملةُ وإن كانت معقولةَ المعنى من حيثُ الجملةُ؛ لأنَّها شُرِعَت لبراءةِ الرَّحِمِ وعدمِ اختلاطِ الأنساب؛ فمِن هذا الوجهِ هي معقولةُ المعنى، ومن جهةِ أنَّ العِدَّةَ تجبُ في الوفاةِ على بنتِ المهدِ، وتجبُ في الطلاقِ والوفاةِ على الكبيرةِ المعلومِ براءتُها بسَبَبِ الغَيبةِ وغيرِها: هذه شائبةُ التعبُّدِ، فلمَّا كان في العِدَّةِ شائبةُ التعبُّدِ وجب فِعلُها بعد سَبَبِها مُطلقًا في جميع الصُّوَرِ؛ عُلِمَت البراءةُ أم لا»[2].

أثر الغلو في استنباط حكم العبادات:

ظاهرة التكلُّف في البحث عن حكمة لكلّ عبادة للإقناع بالالتزام بها نوعٌ من الانحراف، ففي حين كان مفهوم التعبّد لله تعالى كافيًا لحثّ الناس على الالتزام بالعبادات، أصبح الالتزام -مع هذا الانحراف الفكري- بحاجة إلى إثباتٍ عقليٍّ لأهمية كلّ عبادة للمجتمع والحياة، وقد انتشرت هذه الظاهرة بين عوام الناس.

> **قد تظهر الغاية من تشريع العبادات بالنص أو الاستنباط؛ وقد تبقى خفيّة، فتبقى غاية التعبّد لله تعالى مطلبًا بحد ذاته، ومن الغلو في المقاصد تكلُّف علل وحِكم واضحة ومنطقية لجميع الأحكام بحيث يستطيع العقل البشري الحديث أن يفهمها بما يضيِّق من مساحة التعبُّد المحض**

فالخلل في التوسُّع في إعمال مقاصد الشريعة من خلال إلغاء أو تقليص مجال التعبّد في الشريعة بحيث تصير الأحكام جميعها مبنيةً على علل واضحة ومنطقية يستطيع العقل البشري الحديث أن يفهمها؛ بحيث لا يستلزم الأمر الإلهي الطاعة المطلقة بنفسه من دون فهم وتعليل أو تسويغ هو انحراف فكري مبني على الغلو في فهم المقاصد.

والأصل أنّ العبادة توقيفية تدور مع النص، وإن كان للعبادات غايات توخّاها الشرع، لكنّ هذه الغايات إن تخلّف العلم بها لا يتخلّف الحكم، إذ لا قياس في العبادات؛ فتارك الصلاة لا يصحّ أن يحتج لتركها بأنّها لم تنهه عن الفحشاء والمنكر، ومانع الزكاة لا يصحّ أن يحتجّ أنّه لم يشعر بنماء ماله بعد الزكاة!

فوظيفة الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وليس معنى ذلك أنّ من فعل مُنكرًا بعد صلاته فقد بطلت، جاء في تفسير السعدي للآية: «ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أنّ العبد المقيم لها، المتمِّمَ لأركانها وشروطها وخشوعها؛ يستنير قلبه، ويتطهّر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقلّ أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها»[3].

(١) الموافقات، للشاطبي (٥٢٥/٢).
(٢) الفروق، للقرافي (٢٠٤/٣).
(٣) تفسير السعدي، ص (٦٣٢).

السبب الثالث: الغلو في المقاصد تحت تأثير ضغط الواقع:

فوقوع الشرّ وعموم البلوى به يؤثر على الدعوة إلى مدافعته، من خلال إدراج صور من المقاصد لا تندرج تحته أصلاً.

فلا يخفى أنّ الواقع في كثير من البلدان الإسلامية يغلب عليه الاستبداد وسلب الحريات، أو إهمال مبدأ الشورى وإحلال نُظُم مفروضة باسم الديمقراطية؛ فالسعي لمدافعة هذا الشرّ مع التأثّر بالواقع قد يوقع في الغلوّ في فهم المقاصد.

من ذلك على سبيل المثال: محاولة استخدام المقاصد للحدِّ من سلطات القائمين على الدولة من خلال إضافة «حرّية التعبير وحرية الانتماء السياسي»، و«الحقّ في انتخاب الحاكمين وتغييرهم» إلى مقاصد الشريعة! وهذا ناتج عن تأثير واقع الاضطهاد والقهر والظلم الذي يعيشه البعض؛ فيرى الحاجة ماسّةً إلى التأكيد على مفهوم الحرية على أنه مقصدٌ من مقاصد الشريعة!

لكنّ الحرية ومقاومة الظلم والاستبداد -وإن كانت مطلبًا من مطالب الشريعة[1]- لكنّها ليست مقصدًا يضاف إلى المقاصد الضرورية.

ومن آثار ضغط الواقع أحيانًا: الغلو إلى حدّ التناقض في إدراج حكمين متناقضين بالنظر إلى جهة معتبرة في المقاصد، فالفطرة مثلاً مصدرٌ من المصادر التي توصل إلى مقاصد الشريعة، لكن قد يوجد قولان متناقضان في اعتبارها في مسألة واحدة.

من الأمثلة على ذلك: اعتبار الفطرة في تحقيق مقاصد الشريعة في مشاركة المرأة في المناصب العليا من جهة وفي قيامها على شؤون الأسرة من جهة أخرى.

حيث يرى البعض أنّ اندماج المرأة في الحياة السياسية من خلال مشاركتها في الشورى من وسائل تحقيق المقاصد الشرعية للإسلام؛ لأنّ الشورى فطرة وسنّة اجتماعية وأداة لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية.

في حين يرى آخرون عدم مشاركة المرأة في الشورى، لأنّ خروجها من البيت لهذا الغرض يتنافى مع فطرتها التي تتطلَّب بقاءها في البيت، ورعايتها لأسرتها وأطفالها، وبما أنّ هذا منافٍ للفطرة فهو متناقضٌ مع مقاصد الشريعة.

والأصل اتِّساق الأحكام مع المقاصد، فلا تتناقض في الحكم الواحد وُجهاتُ النظر لاعتبارِ مقصدٍ شرعيٍّ واحد.

> **من الغلو في المقاصد الرضوخ لضغط الواقع؛ من خلال إقرار مقاصد ليست من المقاصد الضرورية للشريعة وإن كانت مطلبًا لها، كإضافة «حرّية التعبير وحرية الانتماء السياسي»، و«الحقّ في انتخاب الحاكمين وتغييرهم»، بسبب الاضطهاد والقهر والظلم في واقعنا الحالي**

السبب الرابع: الغلوّ في اعتبار مراتب مقاصد الشريعة:

من أسباب الغلوّ في فهم مقاصد الشريعة: الخلل في اعتبار مراتب المقاصد الكلّية المتّفق عليها، وتقديم المقاصد الجزئية على المقاصد الكلّية، وإغفال النصّ الوارد في بعض الجزئيات إعمالاً لمقصد كلّي.

أ. الخلل في ترتيب المقاصد الكلية الخمسة:

اختلف العلماء في ترتيب مقاصد الشريعة الخمسة من حيث الأهمية، ومعظم العلماء على ترتيبها بحيث لا يتقدم أحد هذه الضروريات على الآخر، وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وبهذا الترتيب ينتظم أمر المقاصد وتتوافق مع اهتمام الشرع، وتقديم الأولى بالاعتبار على غيره، والخلل ينشأ من تقديم ما حقّه التأخير في الرتبة اعتباطًا من غير نظر فيما قدّمه الشرع من المقاصد على غيره.

ومن الأمثلة على ذلك: تجويزُ مشاركةِ الطلاب المسلمين في شعائر غير المسلمين في بعض الدول؛ للحفاظ على العقل المتمثِّل في طلب العلم في المدارس. وفي هذا تقديمُ حفظِ العقلِ بالتعليم على حفظِ الدينِ بتجنّبِ هذه المدارس أو تجنّب القيام بهذه الأنشطة والشعائر المخالفة للإسلام.

(١) قال محمد الطاهر بن عاشور عن الحرية: «إنّها خاطر غريزي في النفوس البشرية، فيها نماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق» أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص (١٦٢).

ب. الاعتماد على الكلي وإغفال الجزئي:

ومن صور الخلل الفكري في فهم المقاصد: الاعتماد على المقاصد الكلية والضرورية للشريعة وإغفال المقاصد الجزئية المستثناة التي ورد بها النصّ؛ مما يجعلها خارج نطاق القصد الكلي المستمدّ من الاستقراء؛ لأنّ المقاصد الكلية أُخذت بالاستقراء من مقاصد الأحكام الجزئية، مع ملاحظة استثناء ما ورد فيه النص الذي لا يحتمل المعنى الكلي.

من ذلك: مَنْ قال بتساوي المرأة مع الرجل في الميراث انطلاقًا من زعم تاريخيّة نزول الحكم زمن التشريع، حيث قالوا: إنّ التفرقة في الميراث كان مناسبًا للمرحلة الزمنية التي نزل بها النصّ، لأنّ المرأة كانت لا تُعطى شيئًا في الجاهلية، ثم جاء الإسلام فأعطاها نصف الذكر، فزعم أنّ هذا المعنى مقصود زمن التشريع، أمّا بعد ذلك فالنص تعليم لنا وإشارة أن نعطيها في المستقبل مثل حظ الذكر!

وهذا الانحراف نتج عن النظر في تقديم الكلّي مطلقًا وهو هنا «المساواة» على الجزئي وهو هنا الاختلاف في مقدار الميراث ولو لم يشترك معه في المقصد، والقاعدة المقاصدية التي ذكرها الشاطبي تتضمن من حيث المعنى: «أنّ سكوت الشارع عن أمر مع وجود داعي الكلام يدلُّ على قصده إلى الوقوف عند حدّ ما شُرع، فَلا يتعدّاه»[(١)].

والأجزاء مرتبطة بالكلّ، والكلُّ يشهد للأجزاء، وهو ما يوضحه الشاطبي بقوله: «فالجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلّي: أن لا يتخلّف الكلّي فتتخلّف مصلحته المقصودة بالتشريع ... فلا بدّ من صحّة القصد إلى حصول الجزئيات، وليس البعض في ذلك أولى من البعض، فانحتم القصد إلى الجميع وهو المطلوب... لا بدّ من اعتبار خصوص الجزئيات مع اعتبار كلّياتها وبالعكس، وهو منتهى نظر المجتهدين بإطلاق، وإليه ينتهي طَلْقهم في مرامي الاجتهاد»[(٢)].

ومعنى ذلك: أنّ الكلي تندرج تحته كلّ الجزئيات مع ضرورة اعتبار الجزئيات ودخولها تحت ذلك الكلي من كلّ الوجوه، فإذا انخرم وجه من وجوه الاعتبار لا يندرج حينئذ تحت ذلك الكلي؛ مثل: المستثنيات من القواعد المانعة كالعرايا والقراض والمساقاة والسَّلَم[(٣)] وأشباه ذلك، فهذه لا تندرج تحت الكلي لاستثنائها بالنص، وكذلك الحكم في اشتراك الجماعة في قتل الواحد فيقتص منهم جميعًا وليس من واحدٍ منهم.

وهذا كلّه يؤكّد لنا أنّ المطلوب المحافظة على قصد الشارع، لأنّ الكلّي إنّما ترجع حقيقته إلى ذلك، والجزئي كذلك أيضًا، فلا بدّ من اعتبارهما في كلّ مسألة.

ج. إغفال النصّ الوارد في بعض الجزئيات إعمالاً لمقصد كلّي:

ومن الغلوّ في هذا الجانب: ما زعمه بعضهم أنّ تطبيق الشريعة يعني إعمال الرحمة في كل شيء -وهو مطلب كلي- لأنّ القرآن يقوم على منهج الرحمة، وما دامت الرحمة هي المنهج، فتحريم الربا وهو جزئي في الإسلام شُرع رحمة بالمدين، فقد تغير الحال ولم يعد الأمر كما كان استغلالاً لحاجة المدين، فربا البنوك الحكومية لم يعد يشبه الربا السابق، وإنّما هو نظام لحساب الفوائد على الديون في مجتمع يقوم فيه المشرّع بدور الرقابة على المعاملات، ويحدّد الفائدة بحيث لا تغني الدائن ولا تستغل المدين، فتتحقق الرحمة بزعمهم!

وهذا الانحراف الفكري مبني على تغليب النظر في المقاصد العامّة وإغفال النصّ في المقاصد الجزئية فلا تندرج تحت الأعلى رتبة، فالنصّ القطعي في تحريم الربا ومقصده المحافظة على المال لا يُعارَض بالكلي من دعوى الرحمة التي جاء بها الإسلام.

> **المقاصد ليست كلمة تُقال أو شعارًا يُرفع وإنّما هي مبدأ أصولي له ضوابطه ومعاييره التي تحكمه حتى لا تصبح سببًا للانحراف الفكري والتعدّي على المسلّمات الشرعية، ونقض أصول الإسلام، وجعل الأحكام عرضة للعبث بيد كل صاحب هوى**

السبب الخامس: وَهْمُ مواكبة الحداثة والميل إلى تقديم العقل:

فمن الغلوّ ما زعمه الحداثيون أنّ الحجاب لم يعُد ملائمًا للعصر، ولا لمكانة المرأة وتحرّرها

(١) الموافقات، للشاطبي (٢/٤٠٩-٤١٤).

(٢) الموافقات (٢/٩٦).

(٣) العرايا: بيع الرطب على رؤوس النخل بتمر، أو العنب في الشجر بزبيب. والقراض: هي المضاربة، وهي أن تعطي إنسانًا من مالك ما يتاجر فيه على أن يكون الربح بينكما، والمساقاة: دفع الشجر إلى من يصلحه بجزء من ثمره. والسَلَم: هو بيع آجل بعاجل.

أسباب الغلو في فهم مقاصد الشريعة

١ سلوك سُبُل غير علمية بدعوى تطوير النظر في مقاصد الشرعية
تأويل المقاصد، والشطط في فهمها، والتعدّي على ثوابت شرعية لا تحتمل التأويل
الزيادة في عدد المقاصد الضرورية دون ضوابط

٢ الخلل في فهم الغائية في مقاصد الشريعة:
الغلو في استنباط حكم العبادات

٣ الغلو في المقاصد تحت تأثير ضغط الواقع:
محاولة إصلاح مشكلات قائمة بابتكار مقاصد في مصاف الضروريات

٤ الغلوّ في اعتبار مراتب مقاصد الشريعة:
الخلل في ترتيب المقاصد الكلية الخمسة
الاعتماد على الكلي وإغفال الجزئي
إغفال النصّ الوارد في بعض الجزئيات إعمالاً لمقصد كلّي

٥ وَهم مواكبة الحداثة والميل إلى تقديم العقل:
انحراف فكري متصادم مع المقاصد وهو في حقيقته ميل مع الأهواء

واقتحامها لكافّة مجالات الحياة العامّة من مدارس وجامعات ومعامل وإدارات وتجارات؛ لأنَّ هذا الحجاب يعوق حركة المرأة ويعرقل مصالحها التي لا تتعارض مع مقاصد الشريعة! وتطبيق مقصد حفظ النسل[١] والذي من لوازمه فرض الحجاب عليها لا يتّفق في هذا الزمان مع معطيات العصر.

وهذا الخلل في التطبيق مردود؛ فإنّ من صفات المقاصد الاطراد في الأزمنة كلّها والأمكنة كلّها؛ لأنّها كلّيات، والكلّيات يشترط فيها هذا المعنى، فلا تأثير لما يسمّى مواكبة العصر في تطبيق مقاصد الشريعة. يقول الطاهر بن عاشور: «المقصود بالاطِّراد: أن لا يكون المعنى مختلفًا باختلاف الأقطار والقبائل والأعصار»[٢].

وكذلك من زعم أنّ المقصود من تذكية الذبيحة تعقيمُها من الجراثيم، فيقوم مقامَ التذكية التعقيمُ بالمواد والأدوات الحديثة!

وهذا الانحراف في الفكر تحت مُسمّى مواكبة العصر هو في حقيقته متصادم مع مفهوم المقاصد ويتماشى مع الميل للأهواء، والرُّزوح تحت مظلّة التبعية للفكر الغربي بدوافعَ غير مستقيمة.

يقول الشاطبي: «... أَنَّ كلَّ عمل كان المتَّبع فيه الهوى بإطلاق من غير التفات إلى الأمر أو النهي أو التخيير؛ فهو باطل بإطلاق؛ لأنّه لا بدَّ للعمل من حامل يُحمل عليه، وداعٍ يدعو إليه، فإذا لم يكن لتلبية الشارع في ذلك مدخل فليس إلا مقتضى الهوى والشهوة، وما كان كذلك فهو باطلٌ بِإطلاقٍ؛ لأنَّه خِلاف الحقِّ بِإطلاقٍ»[٣].

وختامًا:

إنّ المقاصد ليست كلمة تُقال أو شعارًا يُرفع وإنّما هي مبدأ أصولي له ضوابطه ومعاييره التي تحكمه حتى لا تصبح سببًا للانحراف الفكري والتعدّي على المسلّمات الشرعية، ونقض أصول الإسلام، وجعل الأحكام عرضة للعبث بيد كلِّ صاحب هوىً حسب هواه.

(١) وحفظ النسل يتضمّن: حفظ العورة، ودرء الفتنة، والوقاية من الفاحشة، ومن طرق تحقيق ذلك: الحجاب.
(٢) مقاصد الشريعة، لابن عاشور، ص (٢٥٣).
(٣) الموافقات، للشاطبي (٢/٢٩٥).

استراتيجية المراحل الثلاث في الإقناع للدعاة والمؤثرين

د. وائل الشيخ أمين(*)

يهدف الإقناع إلى نقل المعتقدات والأفكار من شخص لآخر بطريقة طوعية، وهو يمثل هدف كثير من الحوارات والعلاقات، بل كثير من الأنشطة البشرية كالإعلام والتعليم والتسويق وغيرها، وعند التدقيق في عملية الإقناع نجدها ذات مراحل وشروط إذا توفرت زادت فرصة قبول الطرف الآخر للموضوع المستهدف واقتناعه به، ولا شك أن الدعوة إلى دين الله أولى ما نعتني بالإقناع به ونقله للآخرين.

مقدمة:

هذا المقال على صغره فيه مادة علمية غزيرة من الناحية المعرفية، كما أنَّ فيه قواعد عملية تطبيقية، ولا أجدني في مثل هذا الموضوع مضطرًا لأنَّ أسترسل في إقناعك بأنَّ الإقناع مُهم، لذلك سأذكر لك مباشرةً محتوى هذا المقال وخطَّته:

سنستعرض في هذه المقال مفهومَ الإقناع، وكيف تتم هذه العملية؟ ولماذا نتأثر ببعض الأفكار أكثر من غيرها؟ ثم سنبسط الحديث في استراتيجية عملية لممارسة عملية الإقناع.

وهذا المقال يبني على بعض أهم المراجع المعاصرة في موضوع الإقناع، منها:

» كتاب «التفكير السريع والتفكير البطيء لعالم النفس» لدانيال كانيمان، حيث يعدُّ من أهم الكتب التي شرحت طُرُق التفكير عند الإنسان وكيفية تبنّي القناعات؛ وتعدُّ هذه النظرية (التفكير السريع والتفكير البطيء) هي النظرية التي قام عليها علم الاقتصاد السلوكي.

» «كتاب التأثير، علم نفس الإقناع لعالم النفس» لروبرت سيالديني، الذي يعتبر اليوم من أهم المختصين في موضوع الإقناع، وقد ترجم كتابه لأكثر من ثلاثين لغة وبيع منه أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.

» كتاب «ما قبل الإقناع» للمؤلف السابق، ولعله من أفضل كتبه.

(١) مؤسس ومدير أكاديمية عين.

ما هو الإقناع؟

الإقناع هو عملية تستهدف العقول من أجل تغيير أو تعزيز موقف أو سلوك أو فكرة شخص أو مجموعة، بشكل طوعي، من خلال التواصل معهم.

ولذلك يعتبر الإقناع من أهم المهارات الحياتية على الإطلاق التي لا يستغني عنها أحدٌ، سواءً الأهل أو المربون أو الدعاة أو الخطباء أو الساسة أو الإعلاميون أو غيرهم ممن يعمل في الشأن العام.

قبل أن ندخل في الاستراتيجية العملية من المفيد أن نستكشف الأسس العملية التي تشرح طرق التفكير عند الإنسان، وما هي الثغرات الموجودة في عقله والتي تتسرب من خلالها الأفكار لتتحول إلى قناعات لديه؟

نظرية التفكير السريع والتفكير البطيء:

من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الناس أنهم يعتقدون أن عملية الإقناع هي عملية منطقية بحتة أو منطقية بالمقام الأول، والواقع بخلاف ذلك تمامًا.

لا شك أن البناء المنطقي قد يكون جزءًا من عملية الإقناع لكنه ليس كل العملية، بل الجزء الأهم من عملية الإقناع لا علاقة له بالمنطق!

كيف ذلك!؟ أوليس الإنسان كائنًا منطقيًا وبالتالي يجب أن يتم إقناعه بالمنطق!؟

الجواب الصريح: لا، بل الإنسان كائن مفكر، يفكر أحيانًا بطريقة منطقية وأحيانًا بطريقة أخرى.

هذا ما قصده دانيال كانيمان بنظريته والتي تقول إنَّ لدى الإنسان نظامَي تفكير، يعمل كل منهما بطريقة مختلفة تمامًا عن الآخر!

> **الإقناع هو عملية تستهدف العقول من أجل تغيير أو تعزيز موقف أو سلوك أو فكرة شخص أو مجموعة، بشكل طوعي، من خلال التواصل معهم**

يسمي دانيال كانيمان نظام التفكير الأول بـالتفكير السريع:

عندما نفكر وفق هذا النظام فإن الأفكار تأتينا مباشرة بطريقة فجائية ولا تحتاج منّا إلى أي تركيز أو جهد.

لو سألتك الآن عن حاصل جمع: ١+١ فإنك لن تبذل أي جهد أو تركيز لتعرف الجواب، لأن نظام التفكير السريع هو من قام بذلك بخفة.

ولو أنك كنت تجيد قيادة السيارة فإنك تقودها الآن وفق نظام التفكير السريع، لا تحتاج إلى أي جهد أو تركيز حتى تعرف كيف تشغل السيارة أو تهدئ من سرعتها أو كم يجب أن تلف المقود عند المنعطفات وغير ذلك بخلاف ما كنت عليه عندما بدأت تعلم قيادة السيارة.

وبالتالي فإن التفكير السريع يعطينا أحكامًا تلقائية سريعة وذلك من ذاكرتنا الدائمة أو من استجاباتنا الفطرية أو من مشاعرنا وعواطفنا وهو في كل ذلك يعمل بطريقة سريعة لحظية دون الاعتماد على المنطق أو تقديم المبررات على صحة الأحكام التي يطلقها.

أما نظام التفكير الثاني فيسميه كانيمان بالتفكير البطيء:

على خلاف النظام الأول فإن التفكير البطيء يتطلب منّا بذل جهد وتركيز ووقت.

لو سألتك الآن عن حاصل ضرب ١٢٧ × ٩٤ فإنك لن تستطيع أن تجيبني مباشرة بل تحتاج إلى الوقت والتركيز لتقوم بالعملية إلا لو كنت أحد عباقرة الرياضيات.

من يقوم بعملية التفكير في هذه الحالة هو نظام التفكير البطيء، ونستطيع أن نقول: إنَّ هذا النظام يتعامل مع كل الحالات الجديدة علينا من مشاكل ومسائل والتي ليست لدينا خبرة كبيرة سابقة بها، أنت تستطيع أن تجيب على أسئلة جدول الضرب بسرعة عبر التفكير السريع لأنك قد حفظته جيدًا مذ كنت في المرحلة الابتدائية، لكنك في مرحلة حفظك الأولى له كنت تجيب عبر التفكير البطيء.

لعلك عرفت الآن أي نظامَي التفكير هو النظام المنطقي، نعم هو النظام الثاني: التفكير البطيء.

ولأنَّ التفكير البطيء متعبٌ ومُجهد فإننا لا نميل كثيرًا إلى استخدامه، وعندما نستخدمه فعادةً لا نستخدمه بكامل طاقته.

> **التفكير السريع يعمل في المسائل التلقائية والآنية دون الاعتماد على المنطق، بينما يعمل التفكير البطيء في الحالات الجديدة والتي ليس لدينا خبرة فيها ويتطلب تركيزًا وطاقة**

ماذا نقصد بأنه مُجهِد!؟

عندما يفكر الإنسان بنظام التفكير البطيء تطرأ على جسمه جملة من التغيرات الفيزيولوجية منها: ارتفاع ضغط الدم، تسرع في ضربات القلب، توسع في حدقة العينين، ازدياد في تعرق الجسم.

تتفاوت شدة هذه التغيرات حسب درجة التركيز أي حسب الطاقة التي تشغل بها التفكير البطيء، فأنت عندما تقرأ هذا المقال وتفهمه فأنت تقرؤه بنظام التفكير البطيء وبالتالي التغيرات تجري عليك الآن، لكنك لو كنت تجري الآن امتحانًا مهمًا صعبًا فإن شدة التغيرات ستكون أكبر.

هذه التغيرات ذاتها هي التي تحصل عندما نقوم بجهد بدني، أي أن التفكير البطيء مُجهد مُتعب حقيقةً لا مجازًا، ولذلك فنحن نميل إلى عدم استخدامه إلا قليلاً، أو نستخدمه بفعالية قليلة.

أما التفكير السريع فهو لا يحتاج إلى تركيز أو جهد، ومن الأمور التي تميزه أنه تلقائي لا يمكن التحكم فيه!

أي أنَّنا عندما نوضع في موقفٍ معيَّن فإنَّ التفكير السريع يقفز مباشرة بأفكاره وأحكامه دون أن نستطيع – مهما حاولنا – أن نوقفه أو نسكته .

خذ مثالاً على ذلك:

سأقول لك جزءًا من مثل شعبي شهير وأطلب منك ألا تكمله في تفكيرك:

الطيور على أشكالها .....

لا بد أنك فشلت! بالتأكيد قفز التفكير السريع في عقلك وهو يقول لك: تقعُ.

وهنا ملاحظة مهمة وهي أن التفكير السريع لا يتوقف عن العمل نهائيًا ما دمنا مستيقظين، حتى عندما يعمل التفكير البطيء ونحن نحل مشكلةً أو نجري امتحانًا فإن التفكير السريع لا يتوقف عن الثرثرة أبدًا، أنت تقرأ مقالي الآن ومع ذلك تستطيع أن تسمع كلام التفكير السريع وهو يحاول أنْ يشتتك.

كيف نستفيد من هذه النظرية في عملية الإقناع؟

بما أن الإنسان يفكر في أكثر وقته بطريقة التفكير السريع، لذلك علينا أن نهتم به كثيرًا ونحن نتواصل مع الآخرين بهدف إقناعهم، ويجب الانتباه إلى عدم الاقتصار على المنطق أو التركيز الزائد عليه.

من أجل التأثير على طريقة التفكير السريع علينا أن ندرس ما يسمى بالتحيزات المعرفية.

التحيُّزات المعرفية:

يقصد بالتحيزات المعرفية أنماط من التفكير السريع التي تؤثر على أفكارنا وأحكامنا.

عدد هذه التحيزات كبير جدًا، سأتحدث عن بعضها في هذا المقال، لكن قبل ذلك أحب أن أؤكد على نقطة مهمة جدًا متعلقةٍ بالتحيزات المعرفية، وهي:

هذه التحيزات هي السبب الأهم في وقوعنا في أخطاء التفكير والمغالطات المنطقية وهي السبب الرئيسي لتعرضنا لخداع الآخرين لنا، لكنها في نفس الوقت ما يجب أن نركز عليه عندما نريد أن نؤثر في الآخرين بغرض إقناعهم بما نراه خيرًا، وليس بغرض خداعهم.

سأتحدث عن تحيزين فقط من هذه التحيزات هما:

التحيز العاطفي:

ويقصد بهذا التحيز أن العاطفة تؤثر على طريقة تفكيرنا، ولا أرى أجمل من بيت الشافعي رحمه الله تعالى تعبيرًا عن هذا التحيز حين يقول:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ
لكن عين السخط تبدي المساويا

فبسبب تحيزنا العاطفي نحن نتأثر ونقتنع بكلام من نحبهم أكثر بكثير ممن لا نحبهم أو

نكرههم، وكذلك فإن أي كلام يوجه إلينا يصبح أكثر تأثيرًا وإقناعًا كلما كانت الجرعة العاطفية فيه أعلى.

التحيّز القصصي:

يقول هذا التحيز: إن كل فكرة تعرض على شكل قصة أو يتم دعمها بقصة فإنها تكون أكثر تأثيرًا مما لو عرضت بشكل مجرد. لكن لماذا!؟

من أهم ما يميز القصص أمران:

- **الأول:** وجود العاطفة، فلا يمكن أن تخلو قصة من عاطفة، سواءً عاطفة من يروي القصة أو عاطفة شخصياتها وهذه العاطفة تؤثر على المستمع بسبب وجود التحيز العاطفي كما أسلفنا.
- **الثاني:** وجود الصور، عقولنا وذاكرتنا تفضل الصور أكثر بكثير من الكلام المجرد أو الأرقام، ولا شك أن القصص تثير الكثير من الصور عند حكايتها.

هل تذكر صورة الطفل (إيلان) ذلك الطفل السوري الذي رماه البحر على الشاطئ بعد أن أغرقه في رحلة الموت التي كان يبحر فيها مع عائلته، صورة إيلان ببنطاله الجينز الأزرق وكنزته الحمراء لا تكاد تفارق ذاكرة من رآها.

لكن هل تعلم أن عدد السوريين الذين يغرقون في مثل هذه الرحلات هم بالمئات على أقل تقدير! كيف تؤثر صورة واحدة أكثر بكثير مما تؤثر معلومة مهمة تتحدث عن أعداد كبيرة.

إنها قوة التحيزات، ولذلك فإننا نرى كثرة تركيز القرآن الكريم على القصص فيه، وعلى الصور أيضًا.

> **التحيّزات المعرفية هي السبب الأهم في وقوعنا في أخطاء التفكير والمغالطات المنطقية وهي السبب الرئيس لتعرضنا لخداع الآخرين لنا، وهي كذلك ما يجب أن نركز عليه في التأثير على الآخرين بغرض إقناعهم بما نراه صوابًا**

بعد هذا الشرح المختصر عن بعض التحيزات المعرفية لننتقل إلى استراتيجية عملية في الإقناع هي: استراتيجية المراحل الثلاثة، وقد قمت بصياغة هذه الاستراتيجية معتمدًا على المراجع التي ذكرتها في بداية المقال وغيرها، وإن كان المقام لا يتسع لشرحها بالتفصيل إلا أنني سأتحدث عن أهم أفكارها.

يمكننا أن نقسم عملية الإقناع إلى ثلاث مراحل:

١. ما قبل الإقناع.
٢. رسالة الإقناع.
٣. بعد الإقناع.

في كل فكرة تريد أن تقنع الناس بها انتبه لضرورة مرورك في هذه المراحل الثلاثة حتى تنجح في عملية الإقناع على أفضل وجه، لأن كل مرحلة لها هدف مهم:

فالهدف من مرحلة ما قبل الإقناع: تهيئة الطرف الثاني –وسوف أستخدم عبارة الطرف الثاني كنايةً عن الشخص الذي تريد أن تقنعه– بحيث تجعله مستعدًا للاقتناع بفكرتك، قبل الدخول في تفاصيلها.

ربما تستغرب لو أخبرتك أن هذه المرحلة هي المرحلة الأهم، فلو أنك فشلت فيها فمن الأفضل لك ألا تتم عملية الإقناع وأن توفر وقتك وجهدك.

أما الهدف من مرحلة رسالة الإقناع: فهو أن تقنع الطرف الثاني بفكرتك أو تؤثر فيه.

لكن المشكلة أن الكثير من الناس يقتنعون بكلامنا عندما نحدثهم، ثم يذهب أثر كلامنا بعد قليل فلا يلبثون أن يعودوا إلى قناعاتهم وسلوكاتهم القديمة، هنا تأتي أهمية المرحلة الثالثة.

والهدف من مرحلة بعد الإقناع: جعل الفكرة التي أقنعت الطرف الثاني بها تبقى في عقله فترة أطول.

هذه هي الاستراتيجية باختصار:

أن تجهز الطرف الثاني ليقتنع بكلامك، ثم أن تقنعه، ثم أن تجعل أثر هذا الاقتناع يدوم.

لننتقل الآن إلى بعض تفاصيل الاستراتيجية، وهي الإجابة على سؤال: كيف يمكنني أن أحقق هدفي من كل مرحلة؟

المرحلة الأولى: قبل الإقناع:

أحد أهم الأمور التي يجب أن تعمل عليها في هذه المرحلة:

الحصول على المصداقية:

ما لم يعلم الطرف الثاني أنك صادق فيما تقول، وأنك ثقة أمين فإن كل كلامك لن يكون له أي أثر، ولذلك فإن هذه النقطة أساسية لا يمكن التفريط فيها.

ومن الدراسات العالمية الكبيرة في موضوع القيادة دراسة قام بها العالمان كوزس وبوسنر حول عدة أمور متعلقة بالقيادة وتكونت عينة الدراسة من ٢٥ مليون شخص، ومن بين الأسئلة التي طرحت عليهم:

ما الصفة الأهم التي تحب أن تكون موجودة في القائد الذي تتبعه؟

فكانت الصفة الأولى التي يحبها الناس هي: المصداقية والأمانة.

لعلك بعد ذكر هاتين الصفتين تذكرت رسول الله ﷺ الذي كان يعرف قبل البعثة بالصادق الأمين، نعم لقد نزلت الرسالة على رجل تحققت فيه هذه الصفة حتى يكون الناس مستعدين لتصديقه فقط لأنه محمد الصادق الأمين.

ومن أجمل الأمثلة على أهمية المصداقية في الإقناع هي بداية دعوة النبي ﷺ الجهرية عندما صعد على جبل الصفا فخطب بالناس:

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟

قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

تمعن الخطبة مرةً أخرى حاول أن تعرف أين هي مرحلة قبل الإقناع فيها وأين هي مرحلة رسالة الإقناع.

نعم، مرحلة رسالة الإقناع هي الجملة الأخيرة: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

أما ما استفتح به النبي ﷺ خطبته فهو مرحلة ما قبل الإقناع ليحصل من الناس على توكيد مصداقيته! جميعنا يعلم أن النبي ﷺ كان معروفًا بصدقه بين الناس أي أن الأمر متحقق دون أن يتكلم، لكنه لو قام بتذكيرهم بذلك لكان أفضل، ومن عبقرية النبي ﷺ أنه لم يفعل ذلك بطريقة صريحة مباشرة، أي لم يقل لهم: ألا تعلمون أنني لا أقول إلا الصدق، بل استعمل طريقة جعلتهم يشهدون له بالصدق وهذا أقوى في الأثر.

فبعد أن عرض الرسول ﷺ ما لديه في رسالة الإقناع لم يستطع أحد منهم أن يقول له أنت كاذب، وكيف يقولها وقد اتفق الناس قبلها مباشرة على صدقه؟ حتى إن أشقى الناس بينهم وهو أبو لهب لم يستطع أن يكذبه في هذا المقام فقال له: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فقام بالتهوين من الرسالة بعد أن عجز عن تكذيبها.

كيف تحصل على المصداقية؟

عندما تتحدث مع الأشخاص الذين يعرفونك جيدًا ويثقون بك فعندها يمكنك أن تتجاوز هذه المرحلة، لأن المصداقية تكون متحققة سلفًا ولا بأس من تأكيدها في بعض الحالات، أما الحاجة الأكبر للحصول على المصداقية فتكون عند محاولتك إقناع من لا يعرفك مسبقًا أو أن معرفته بك لا تصل إلى درجة الثقة.

هنالك عدة طرق للحصول على المصداقية أذكر منها:

أن يعطيك إياها من يثق به الناس: أي أن يقوم بتزكيتك والثناء عليك شخص موثوق عن الجمهور الذي تريد أن تؤثر فيه، فلو كنت ستلقي محاضرة، فمن المفيد جدًا أن يقوم بتقديمك شخص يثق به الحضور فيقوم بالحديث عنك والثناء عليك دون مبالغة طبعًا بل بما تستحقه، فهو حينئذٍ ينجز عنك مرحلة ما قبل الإقناع ويمنحك المصداقية ويجعل الحضور مستعدين نفسيًا لقبول كلامك والاقتناع به قبل أن تتكلم كلمة واحدة.

ولو أردت أن تنشر كتابًا فمن المفيد أن تطلب من بعض الشخصيات المشهورة التي يثق بها الناس أن تكتب تقريظًا لكتابك تتحدث فيه عن جودة الكتاب وأهميته وكاتبه.

خذ المصداقية من المراجع: هذه المرة ستعمل على الحصول على المصداقية لكلامك مباشرة وليس لشخصك، وذلك بأن تسند كلامك إلى العلماء والشخصيات التي يثق بها الناس.

لاحظ أنني فعلت ذلك في بداية مقالي عندما تحدثت عن أهم مراجع المقال وقمت بالثناء عليها وبيان مكانتها، فاعتمادي على مراجع بتلك المكانة يعطي مقالي مصداقية أكبر، فليس ما أكتبه عبارة

مراحل عملية الإقناع وأهدافها

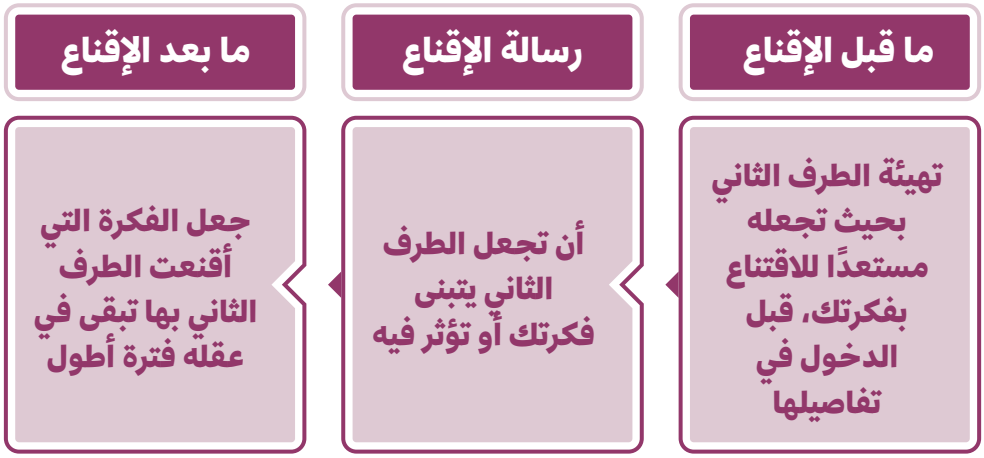

عن تأملات ذاتية وتجارب شخصية قمت بتدوينها بل هي حصيلة العديد من الدراسات العلمية العالمية.

> **أكثر القصص تاثيرًا هي قصصك الشخصية، لأنَّ مصداقيَّتها أعلى، وبطل القصة هو من يحكيها، فسيقدمها بحماسة أكبر، مما يؤدي إلى أن يتفاعل الناس معها عاطفيًا أكثر، لذلك استعن بتجاربك الشخصية**

المرحلة الثانية: رسالة الإقناع:

في هذه المرحلة يتم عرض الفكرة، وسأذكر فيها قاعدتين أساسيتين:

١. **استخدم الصور والقصص:** راجع بعض منشوارتك أو كتاباتك وانظر إلى كمية الصور التي تثيرها كلماتك، كلما أثارت كلماتك صورًا أكثر كلما كنت أكثر تأثيرًا وإقناعًا.

خذ هذا المثال وقارن بين النصين التاليين:

مرحلة بعد الإقناع هي المرحلة التي نعمل فيها على بقاء الفكرة فترة أطول عند الطرف الثاني.

لو أننا شبهنا الفكرة ببالون فإننا في مرحلة بعد الإقناع نقوم بربط هذه البالون برأس الطرف الثاني، حتى تبقى ملتصقة به فترة أطول، لو لم نفعل ذلك فسوف يمضي وتبقى الفكرة البالون بعيدة وحيدة في الهواء.

الفرق بين النصين، أنني عملت على تحويل الكلمات المجردة في النص الأول إلى كلمات تثير صورًا في ذهنك، وتذكر أنه ليس للكلمات أي أثرٍ سوى الصور التي تثيرها في مخيلة المتلقي.

من خلال الدورات التدريبية التي أعطيتها في دورة الإقناع والتطبيقات التي يقوم بها المتدربون على هذه الاستراتيجية وجدت خللاً متكررًا وهو ذكر القصة بطريقة مختصرة وباردة، ولذلك سأعطيك ثلاث قواعد أساسية لو التزمت بها فسوف تمنح قصتك الحياة والتأثير:

- قم بحشد الصور في قصتك ما استطعت، لا تركز على ذكر أهم الأحداث فقط بل قم بوصف بعض التفاصيل التي تعين من يسمعك أن يتخيل القصة، يجب أن يسمع القصة بعينه أيضًا لا بأذنه فحسب.

- أظهر العواطف في القصة: إما أن تتفاعل أنت عاطفيًا مع القصة في محطاتها وتظهر ذلك، أو أن تصف عواطف شخصيات القصة، وذلك كما تعلم للاستفادة من أثر التحيز العاطفي.
- اربط القصة بشخصيتك: أكثر القصص تاثيرًا هي قصصك الشخصية، لأن مصداقيتها أعلى فبطل القصة هو من يحكيها، كما أن الناس تتفاعل عاطفيًا أكثر عندما يسمعون القصة من بطلها، وكذلك نحن نحكي قصصنا الشخصية بحماسة أكبر، لذلك استعن بتجاربك الشخصية، أو لو حكيت قصة غيرك وكان لك علاقة به فأظهر هذه العلاقة كأن تقول: إن فلان الذي في القصة هو صديقي، أما لو كانت القصة ليست عنك ولا عن أحد تعرفه فتحدّث عن انطباعاتك مع هذه القصة، كأن تقول: أوّل مرةٍ سمعت بهذه القصة لم أصدقها، أو أن تقول: هذه القصة من أكثر القصص التي لا أستطيع أن أنساها ...إلخ

٢. **استخدم المنطق البسيط:** أي أن تذكر الأدلة على صحة فكرتك، وهنا عليك أن تبتعد عن المنطق المعقد والأدلة المتداخلة، فمثل هذا المنطق يمكنك أن تستخدمه مع المختصين والباحثين وفي دوائر ضيقة أما عموم الناس فلا يطيقون الصبر على التعامل مع المنطق الصعب، ومن أمثلة المنطق البسيط:

الاستناد إلى سلطة: والمقصود بالسلطة هنا من يحبهم الناس ويثقون بهم، ألا ترى أن الكثير من الجدالات الفقهية قد تنتهي عندما تقول: هذا عليه جمهور الأمة!

وكذلك فإن قولك، أثبتت الدراسات العلمية الحديثة مثل دراسة نشرت مؤخرًا لجامعة أكسفورد أن .....، هذه السلطة العلمية تعطي فكرتك مكانة أعلى.

» استخدام الإحصائيات.

» الدليل الجمعي: على الرغم من أن اتفاق الكثير من الناس على فكرةٍ ما لا يعني أنها صحيحة بالضرورة إلا أن هذا الاتفاق يؤثر في قناعاتهم، فأنت تذهب عادة إلى الطبيب الذي يثني عليه أكثر معارفك، وتأكل من المطعم الذي يحظى بشهرة وسمعة جيدة وكذلك فإنك لو استطعت أن تدعم فكرتك بأن أكثر الناس يؤيدونك فيها أو في جزءٍ منها فإن هذا يقوي موقفك.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد الإقناع:

كيف تربط فكرتك (البالون) بعقل الطرف الثاني حتى لا ينتهي أثرها بمجرد مفارقته لك!؟

أزعم أن هذه المرحلة هي أكثر المراحل التي لا ينتبه لها في خطب الجمعة خصوصًا وفي الخطاب الدعوي عمومًا، ربما ترى الناس يتأثرون كثيرًا بما يسمعون، لكن هذا التأثر لا يصاحبهم فترةً طويلة.

من أفضل الطرق لإطالة أثر القناعة أن تطلب من الطرف الثاني -بعد أن تقنعه بفكرتك- أن يقوم بسلوكٍ محددٍ مرتبطٍ بهذه الفكرة، مواصفات هذا السلوك:

- أن يكون محددًا بوضوح، لا أن يكون عامًا مبهمًا .
- أن يكون قابلاً للتنفيذ.
- أن يكون مرتبطًا بشكل وثيق بالفكرة، فإذا قام به ترسخت هذه الفكرة في نفسه أكثر.

فلو أنك أعطيت محاضرة في أهمية القراءة، فمن الحسن أن تختمها بنصائح عملية يمكن تطبيقها مباشرة، أو أن تحيل الحضور إلى محاضرة أخرى متعلقة بالموضوع موجودة على اليوتيوب أو أن تنصحهم بكتاب.

الخاتمة:

سأختم معك عزيزي القارئ بتطبيق عملي لآخر نقطة ذكرتها، فلو أنك اقتنعت بأهمية الإقناع وضرورة امتلاك هذه المهارة فاعلم أن المهارة لا يكفيها العلم حتى تكتسب بل لا بد من الممارسة.

لذلك أختم بنصيحتين:

» قراءة كتاب: ما قبل الإقناع، فهو أكثر الكتب التي ذكرتها فائدة من الناحية العملية التطبيقية.

» تطبيق استراتيجية المراحل الثلاثة في الإقناع مراتٍ كثيرة، حاول أن تجعل هذه الاستراتيجية تدريبًا يوميًا تكتب بناءً عليها منشورًا على الفيسبوك، أو مقالاً، أو تعدُّ محاضرةً أو خطبة، أو تقنع بها شخصًا آخر.

تأكد أنَّ الأمر في البداية سيكون صعبًا وربما فيه بعض التكلُّف لكنك بعد فترة سينتهي بك الأمر إلى امتلاك مهارة الإقناع، لتستخدمها إن شاء الله في نشر الخير بين الناس.

تزكية

إنها سُنّةٌ .. فلماذا أفعلُها؟

أ.حسان الجاجة (*)

شرع الله تعالى إلى جانب الفرائض جملة من النوافل والمستحبّات، يؤكِّد بها المؤمن حُبَّه لخالقه وطاعتَه له، وصدقَ اتِّباعه للنبي ﷺ، لكن بعض الشباب يزهدون في فعل هذه السنن والمندوبات غافلين عن فضلها ومكانتها، وحجتهم في ذلك أنها ليس واجبة ولا يعاقب تاركها. لماذا يفكرون بهذه الطريقة؟ وكيف نخاطبهم؟ وما هو دور المربين في معالجة هذه الظاهرة؟ هذا ما تحاول المقالة الإجابة عنه.

أذكر عندما كنا في المحاضن التربوية في ريعان الشباب قبل عقودٍ خلت، كيف كنا نغبط فئامًا من الفتيان والشباب والمربين نراهم يتسابقون إلى الصف الأول في الصلاة، والتبكير إلى الجمُعة والجماعات، والاعتناء بالطمأنينة في الصلاة وأداء السنن الرواتب، وقيام الليل، والعيش مع القرآن، وشهود الجنائز وزيارة المقابر، والمسارعة في وجوه البرّ، حتى إنك ترى السُّنَّة تكاد تحظى بمنزلة الفريضة في حياتهم حرصًا واهتمامًا، نحاولُ التشبّه بهم لعلنا نلحقُ بالذين أنعمَ الله عليهم، فكانت الهمم عليّةً والعزائمُ قويّةً والنفوس نقيّةً، تغذّي الأرواحَ مجالسُ العِلم وحِلَقُ الذِّكر ومصاحبةُ الصالحين الجادِّينَ، ونُصحُ الإخوةِ الصادقين وقدُواتٌ عاملةٌ غدَت محطَّ نظر الناشئين، ومحبّةٌ في الله سمت على كلِّ متاعٍ فانٍ، فأثمرت نفوسًا كِبارًا لاتزال تسارع في الخيرات وتُنافس في الباقيات الصالحات، تُوَرّث الهمّة والقدوة الحسنة للأجيال جيلاً بعد جيل. وفي كل جيلٍ نماذجُ فذّة من الأخيار، تحسبهم ممن يَصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

ومع مرور الوقت، وكثرةِ التحديات والرياح التي تعصِف بالمتربين وتزيد العبء على المربّينَ، تبرز قضايا وظواهرُ متنوعة، يجدر بالمربين أن يولوها اهتمامهم بالوقوف على أسبابها ومظاهرها وسبل الإصلاح التي عليهم أن يسلكوها.

(*) مدير جمعية تاج لتعليم القرآن الكريم، داعية ومربي.

ومن هذه القضايا مشكلة يلحظُها عددٌ من المربين، تتلخّص في زهدِ عددٍ غيرِ قليل من الشباب في أداءِ السُّنَنِ والحرصِ عليها بمختلف أنواعها ومراتبها، بل رَدُّ بعضهم عند حثّهم على أداءِ السُّنّة بقوله: «**إنها سُنّة .. فلماذا أفعلها؟**»، وما ذلك إلا لقصورٍ في فهمِ معنى السُّنّة بأنها ما لا يعاقَب على تركه، وقد يحتَجّ بعضهم بقول الأعرابي: «واللَّه لا أزيدُ على هذا ولَا أَنْقُصُ» قال رسول الله ﷺ: (أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ)[1].

فما الذي يجعل المتربي يزهد في السُّنَّة ويتكاسلُ عنها ويعزُفُ عن تحرّيها وتطبيقِها، وينظرُ إليها فقط من باب عدمِ الإثم بتركها، ولسان حاله ومقاله: لا عليّ إن تركتُها ولا شأنَ لي بفعلها؟!

ولعلنا في هذه الأسطرِ نتلمّسُ أبرز أسبابِ تهاونِ بعض المتربين -بل بعض القدوات أيضًا- بالسُّنَّة، في محاولةٍ للوصولِ إلى حلولٍ تسهمُ في علاجِ المشكلة؛ لنرتقيَ بالمتربين في مدارجِ السالكين ومنازل السائرين إلى ربّ العالمين.

> **من أهم أسباب الزهد في السُّنن ضعفُ الاهتمام بالتربية القلبية والبناء الإيماني والوجداني لدى المتربين، وممارسةُ التعليم المعرفي المجرَّد عن مخاطبة المشاعر وتعزيز الإيمان وتحريك القلوب**

أبرز أسباب التهاونِ في السنن والتكاسل عنها:

- ضعف غرس تعظيم الله تعالى في القلوب، وما هو أهل له من العبودية والتقرب بالطاعات.
- عدمُ معرفة الرسول محمد ﷺ حقّ المعرفة، فيقِلُّ اتباعه والتمثّل بأخلاقه وأفعاله ولا تتحقق مقتضيات محبته ﷺ كما يجب على المسلم.
- التقصير في غرسِ تعظيم سنَّة النبي ﷺ في نفوس المتربين قبل تعليمها والأمر بها.
- عدم فهم السنن والنوافل بمعناها الصحيح، وعدمُ معرفةِ فضائلها والآثار المترتبة على فعلها والمداومةِ عليها، فتصبحُ وكأنّها ثِقْل على الإنسان الذي يكتفي بالفرائض لينجو من عذاب الله، ومثلها الجهل بالآثار المترتبة على المداومة على ترك السنن.
- ضعفُ تمثُّل القدوة في أفعال المربّي، فلا يرونه محافظًا على السُّنَن أو حريصًا عليها، فيكون مبرّرًا لزهدهم فيها والتقصير بها.
- ضعفُ الاهتمام بالتربية القلبية والبناء الإيماني والوجداني لدى المتربين، وممارسةُ التعليم المعرفي المجرَّد عن مخاطبة المشاعر وتعزيز الإيمان وتحريك القلوب.
- ضعف الخطاب الإيماني الموجه للمتربِّين، وقلّةُ الحديث عن الجنة ودرجاتها العالية وتفاضُلِ أهلها، وقرب أصحاب المنازل العالية من مقام النبي ﷺ في الجنة، وأعظم من ذلك نيل محبة الله تعالى وازدياد القرب منه، وأن ذلك يحصل بسبب محافظتهم على الأعمال الصالحة ومنها النوافل.
- الانشغال بالسفاسف عن معالي الأمور، ومتابعةُ التفاهات، والانشغالُ بالصوارفِ ومضيّعات الأوقات كالأجهزة اللوحية والألعاب الإلكترونية، مما يورث الكسل والفتور ويشغل عن الواجباتِ فضلاً عن السنن والمستحبات.
- الانشغال والانغماس بالدنيا، والمبالغة في الانشغال بالأعمال والوظائف والمتطلبات المعيشية اليومية، والبخل بالوقت الذي يصرف في أداء السنن..
- مصاحبةُ التافهين والبطّالين، والبعدُ عن مجالسة الجادّين الصالحين ومصاحبتِهم ومنافستهم في الخيرات.
- التساهل في المكروهات والمحرّمات، فتتثاقل النفوس عن أداء المندوبات والمستحبات.
- الاعتقاد بأن الفرائض مقبولة أو أنّه قام بما عليه بمجرّد أدائها.

إضاءات على طريق غرس حب السنن في نفوس الناشئة:

فيما يأتي إشاراتٌ وإضاءاتٌ تعين على غرسِ حبِّ السُّنَّةِ وتعظيمها في نفوس المتربين والحرص عليها، لينعكسَ ذلك في فكرهم وأقوالهم وأفعالهم:

(١) أخرجه البخاري (٤٦) ومسلم (١١).

* تعليمُ الإيمان وغرسُه في نفوس المتربين، والتربيةُ على أعمال القلوب:

فذلك يورث المسارعة في الصالحات والمنافسة في علوّ الدرجات، فلا يكون همّ المتربي أدنى المنازل، وهذا لا يحصل إلا عبر خطواتٍ ومراحلَ ومعايشةٍ وبناءٍ مستمر، يثمر في المتربي تعظيمَ الله وتعظيمَ رسوله ﷺ، وتعظيم الشريعة وتعظيم الأوامر والنواهي. ومتى ما وصلنا بالمتربي لهذا المستوى من البناء الإيماني؛ نشأ لديه الحرصُ على الأعمال الصالحة التي تزيده رفعة في الدرجات، ومن ذلك السنن والنوافل. وفي حديث جندب بن عبدالله البجَلي رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزاوِرَةٌ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»[1].

* غرسُ محبّةِ النبي ﷺ وتعظيمِه وتوقيره في قلوب المتربين:

وتعريفُ النشء بصاحب هذه السُّنَّة عليه الصلاة والسلام، وذلك بتدريسهم السيرة النبوية تدريسًا لا يقتصر على سرد أحداثها ووقائعها مجردةً من الدروس والعِبَر، بل نعرّفهم بهذا النبي العظيم ومنزلته عند الله، وبشفقته ورأفته بأمته، وبشمائله وأخلاقه، وثناء الله عليه واصطفائه له، وكيف ضحّى وجاهد وأوذي وصبر ليبلّغ رسالة ربه ليصلَ إلينا هذا الدين، حتى أصبحنا من خير أمة. ويمكن للمربي الاستعانة بالكتب التي تُعلّم محبة رسول الله ﷺ في أدائه لرسالته التربوية، ويتدارسها مع طلابه.

> **من أعظم طرق غرس القيام بالسنن في نفوس المتربين: غرس الإيمان في نفوس المتربين، والتربية على أعمال القلوب، وغرس محبة النبي ﷺ وتعظيم الاقتداء به**

* التربية على محبة الاقتداء بالنبي ﷺ واتباعه:

فمن أحبّ أحدًا اقتفى أثره. وقل لمن تربيه: وَدّ حبيبُك ﷺ لو رآك، وهو ينتظرك على الحوض يوم القيامة، وسيعرفك من كثرة الوضوء والصلاة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (وَدِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا) قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: (أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ). فقالوا: كيف تعرف مَن لم يأت بعدُ مِن أمتك يا رسول الله؟ فقال: (أرأيتَ لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بين ظهرَي خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، ألا يعرف خيلَه؟) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: (فإنهم يأتون غُرًا مُحَجَّلين مِن الوضوء، وأنا فَرَطُهم على الحوض)[2].

فهل تستعدُّ لتراه وتكون رفيقه في الجنة؟ فإن المرء مع من أحبّ، وبرهانُ حبك له اتباعك لسنته، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد سأل الصحابي ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه النبيَّ ﷺ عن الطريق إلى ذلك فقال: «كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فأتيتُه بوَضوئِه وحاجته، فقال لي: (سَلْ). فقلت: «أسألك مرافقتَك في الجنة». قال: (أوَ غير ذلك؟)، قلت: «هو ذاكَ»، قال: (فأعِنِّي على نفسِك بكثرةِ السُّجود)[3].

* تعظيمُ الاقتداءِ بالنبي ﷺ:

ومنه تعليمُ المتربين أنَّ هديه أكملُ الهدي، وفعلَه أكملُ الفعل، وقولَه أكملُ القول، وخُلُقَه أكملُ الخُلُق، فلننظر ما قال وفعل فلنلزم غرزه، فثَمَّ الدرجات العُلا في الجنة، وهو دأب من يرجون ثوابَ الله وحُسنَ الجزاء في الآخرة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولو ضربنا مثالاً عمليًا في تعليم سنن الصلاة، ففرق بين أثَرِ مربٍّ يقوم بتلقينها والاقتصار على ذِكرها وتعدادِها، وبين من يلفت أنظارَ المتربين إلى عبادة النبي ﷺ وكيف أنه وإن كان يحرص على صلاة الفرائض وإقامتها على الوجه الأكمل، فإنه يصلي ثلاثًا وعشرين ركعة كل يوم من السنن: الرواتب، وقيام الليل والوتر، وأنه وإن كان يصوم رمضان فرضًا فقد كان يصوم معظم شعبان ومعظم محرم وأيام الاثنين، وهكذا.. مما يجعلهم يعيشون حياة النبي ﷺ بوجدانهم ويتخيّلونها رأيَ أعيُنهم، فيعظّمون كلّ أفعاله ﷺ.

وإذا أراد شرحَ بابِ سنن الصلاة، بادرهم بالسؤال: من منكم يحب أن يصليَ كما صلى رسول الله ﷺ ليكون متّبعًا له فيحبّه الله ورسوله؟ هل

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١)، (حَزَاوِرَةٌ) جمع حَزْوَر، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٩).

تعلمون أن هناك أفعالاً وأقوالاً في الصلاة تجعلك تتلذذ بها وتستشعر هيبة ولذة الموقف بين يدي الله والإقبال عليه، فتزداد قربًا منه، ويعظُم أجرك فيها، وتكون صلاتك أشبهَ بصلاة حبيبك ﷺ... إلى غير ذلك من المعاني التي يحلّق بها المربي بوجدان وإيمان المتربي وهو يقدّم درسًا فقهيًا عن سنن الصلاة.

السنن كالسياج الذي يحمي الفريضة من أن يُنتقَص جانبها، فالمقتصر على الفرائض يُخشى عليه التقصير فيها أو أن تثقُل عليه، بخلاف المحافظِ على السّنن فإنك تجد أن أداء الفرائض يصبح خفيفًا يسيرًا عليه، ويحضُر فيها قلبه وينشَطُ لها، ويغتمُّ لفواتها أو التأخر عنها

* من أعظم ما يُرغّب في السُّنّة ذِكرُ فضائلِها والأجورِ المترتبة عليها:

فركعتَا الفجر خير من الدنيا وما عليها، وباثنتَي عشرة ركعة في اليوم يُبنى لك بيت في الجنة، وركعتان بعد الوضوء بلغت ببلال ﷺ أن سمع رسولُ الله ﷺ خشخشةَ نعليه في الجنة، ودقيقتان تأتي فيهما بالأذكار عقب الفريضة تسبق بها غيرك، وتذكر الله وتسبّحه وتحمده وتكبّره فيذكرك في الملأ الأعلى، وصيامِ يوم في سبيل الله يباعدك عن النار سبعين خريفًا، ودمعة في خلوة وصَدَقةٌ في خَفاء تجعلك في ظل العرش يوم القيامة... وغير ذلك من النوافل والأجور، ينفع التذكير بها بين الحين والآخر لشحذ الهمم وترغيب النفوس، وبيانِ كم يُضيع على نفسه من الفرص والأجور العظيمة من تكاسل عنها وزهد بها.

ومن الفضائل العظيمة التي يجدرُ الترغيب فيها: بيانُ أنها من أسباب محبة الله للعبد، فنغرسُ في المتربي الحرصَ على محبةِ اللهِ له، وأن يصبحَ همُّهُ أن يكون محبوبًا عند مولاه، لينال ثمرةَ هذا الحب: (وما يَزالُ عبدِي يتقرَّبُ إلي بالنوافِل حتى أُحِبَّه، فإذا أَحبَبْتُه كنت سمعَهُ الذي يسمعُ بِهِ، وبَصره الذي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ التي يَبْطِش بها، ورجلَهُ التي يمشِي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولَئِن اسْتَعاذني لأُعِيذنَّه)[1].

* بيانُ قيمة الحسنةِ والحاجةِ إليها يوم القيامة:

وأنّ أصحاب الأعراف لو خفّت موازينهم بسيئة واحدة فأين سيكون مآلهم؟ فالسُّننُ تجبرُ ما ينقصُ من الفرائض، وكم سيحتاج العبدُ من حسنةٍ ليجبرَ بها نقصًا، أو يعدّلَ بها كفّةَ الميزان يوم القيامة! حينها يجد السُّنّة أمامه تنقذه من الهلاك. فيكون استحضار الخوفِ من النار والرغبةِ في الجنة باعثان على الصبر والمداومة على المزيد من العمل الصالح الموصل إلى رحمة الله والنجاة من النار. وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أولَ ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صَلَحَت فقد أفلَحَ وأنجَحَ، وإن فسدت فقد خاب وخَسِرَ، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي مِن تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائرُ عمله على ذلك)[2]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قبرٍ دُفِنَ حديثًا فقال: (ركعتان خفيفتان مما تَحْقِرون وتُنَفِّلون يزيدُهما هذا فِي عمله أحبُّ إليه مِن بقية دنياكم)[3].

* بيانُ أن المحافظة على السنن تدعو إلى الإقبال على الفرائض والحرصِ عليها:

فهي كالسياج الذي يحمي الفريضة من أن يُنتقَص جانبها، فالمقتصر على الفرائض قد يُخشى عليه التقصير فيها أو أن تثقُل عليه، بخلاف المحافظ على السّنن فإنك تجد أن أداء الفرائض يصبح خفيفًا يسيرًا عليه، ويحضُر فيها قلبه وينشَطُ لها، ويغتمُّ لفواتها أو التأخر عنها، ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ويمكن للمربي أن يعين المتربين على قياس محافظتهم على السنن، سواء بالشروحات أو بالأدوات، وأن هذا القياس -كيفما كان ما دام محققًا للمقصود- هو جزء من محاسبة النفس وإعانتها وتمكينها من تحقيق مرادات العبودية.

* مدارسةُ سيَرِ سلفِ الأمة وصالحي الأمة:

من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، وربطُ المتربين بعظماء هذه الأمة للاقتداء بهم، والوقوف على قصَصهم في حرصهم على السُّنن والتنافسِ فيها، فقد كانوا يحرصون على السُّنّة لأنها سُنّة، في حين

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٤١٣).
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١).

إضاءات على طريق غرس حب السنن في نفوس الناشئة

١ التربية على الإيمان وأعمال القلوب

٢ غرسُ محبّةِ النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمِه

٣ ذِكرُ فضائل السنن والأجورِ المترتبة عليها

٤ بيان قيمة الحسنة والحاجة إليها يوم القيامة

٥ بيانُ أن المحافظة على السنن تحمي الفرائض من التفريط

٦ مدارسةُ سيَرِ سلفِ وصالحي الأمة

٧ تعليم الدعاء وبيانُ فضله وثمرته

٨ توضيح أنَّ أبواب السنن كثيرة متنوعة

٩ تعليم المتربين القيام بالعبادات على حقيقتها

أصبحنا نجد من يترك السنَّة لأنها سنَّة! ولننظر لهذا النموذج من النماذج المشرقة الكثيرة، عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس قال: حدثني عَنْبَسَةُ بن أبي سفيان في مرضه الذي مات فيه بحديث يتسار إليه، قال: سمعت أم حبيبة تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَن صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة، بني له بهن بيت في الجنة). قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. وقال ابن عنبسة: فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة. وقال عمرو بن أوس: ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة. وقال النعمان بن سالم: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس[1].

ومن ثمرات دراسة أحوالهم في العبادة والتقرب من الله، إدراك أن الله بارك في أعمارهم وأعمالهم بقدر ما صرفوا من الأوقات في النوافل؛ فقاموا بما يعجز عنه أحدنا ممن يظن أنه يوفر الوقت بترك السنن.

* تخوُّلُ المتربين بالموعظة والصبرُ في تربيتهم:

فلا تحسبنَّ أن ربط القلوب بالسُّنّة وتعظيمَها يكون بدرسٍ عابر أو محاضرة مُنمّقة فحسْب، حتى تقولَ قد أدّيتُ ما عليّ، وإنما هو بناء مستمر عبرَ سلسلة من الممارسات والتوجيه والملاحظة والتحفيز والثناء والترغيب والترهيب والتطبيق العملي... وكثيرٍ مما لا يخفى على المربي أثره.

ارفق بهم، ولا يكن ديدَنَك الأمرُ والنهي والوعظُ كلّما لقيتَهم، بل تحيّن ساعات إقبالهم، وشجّعهم على القليل وأَثنِ عليه، ولا تتلمّسِ التقصيرَ فيكثُـرَ عتابُك ويقلّ ثَناؤك، وتدرّج معهم بالمداومة على بعض السنن، فأحَبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ، وأشعِل فَتيل الحماس في أنفسهم للمواظبة على السنن، حتى تُصبحَ أُنْسَ نفوسِهم وعادةً مكتسبةً محبّبَة للنفس يسهُل أداؤها، ويتسّربُ الحزن إلى النفس عند تركها.

اسألهم بين حين وآخر: من فعل منكم اليوم كذا؟ من فعل منكم اليوم كذا؟ وأَثنِ على فِعلهم وذكّرهم بفضلِه وثوابه، فعَن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: (فمن تبع منكم اليوم جنازة؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: (فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: (فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا. فقال رسول الله ﷺ: (ما

(١) أخرجه مسلم (٧٢٨)، يتسار إليه: يُسَرُّ به لما فيه من البشارة مع سهولته.

اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة)[1]. وعند الطبراني في الكبير: فضحك رسول الله ﷺ حتى استعلى به الضحك، ثم قال: (والذي نفسي بيده ما جمعهن في يوم واحد إلا مؤمن، وإلا دخل بهن الجنة)[2].

* تعليمُهم الدعاءَ وبيانُ فضله وثمرته:

وتوضيح أثره في الاستعانة على الطاعات فرائضَ ونوافلَ، كأن يدعو «اللّهُمّ حبِّب إلينَا الإيمانَ وزيّنه في قلوبِنا وكَره إلينا الكُفر والفُسوقَ والعِصيانَ واجعلنا مِن الرَّاشِدين»، ولنتأمل هذا المشهد التربوي من المربي الأعظم صلوات الله وسلامه وعليه، لمساتٌ دافئة وتصريحٌ بالحبِّ يتبعه توجيهُ المحِبّ، عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ أخذ بيده يومًا ثم قال: (يا معاذ إني لأحبك). فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا أحبك. قال: (أوصيك يا معاذ لا تَدَعَنَّ في دُبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذِكرِك وشُكرِك وحُسْنِ عبادتِك)[3].

* بيانُ أنَّ أبواب السنن كثيرة متنوعة:

وقد يفتح الله للعبد في بعضها أكثر من بعض، فمن وجدتَ منه إقبالاً على نوع منها فشجّعه وأَعِنْهُ وأَثنِ عليه، ولا تتَقالَّ حرصَه عليها لتقصيره في غيرها، فيتركَ ما نشِطَت إليه نفسُه بسبب فواتِ غيرها، بل الفِت نظره إلى جمالِ حرصِه ومُداومَتِه ومحبةِ الله لفعله، فيكون ذلك دافعًا له لتطبيق المزيدِ من السُّنَن والحرص عليها.

> **أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله حالَهم، وعامِل من اختارك الله لتربيتهم كأبنائك حبًّا ونُصحًا ولينًا وإشفاقًا، واجعلهم يشعرون بذلك حقًا، وتعاهدهم بالدعاء لهم بالهداية والرشاد، وسترى ثمرة ذلك في حبِّهم لنُصحك وإرشادك**

* تعليم المتربين القيام بالعبادات على حقيقتها:

وليس مجرّد أداء حركات، ففي الأولى يزداد حب المرء للعبادة ويسعى لطلب المزيد منها، وفي الثانية لا يريد أكثر من الانتهاء منها ورمي حملها عن كاهله.

> **لنغرس في نفوس المتربين أن العبرةَ في السنّة أن نفعلَها، والعبرةَ في المكروه أن نتركه، وليس العكس**

وفي الختام همسة في أذن كل مربي:

» **كن قدوةً فيما تدعوهم إليه،** يتجَسّدُ فيكَ المَثَلُ الحيُّ في المسارعة إلى السّنن والحرص عليها، فيرونك مسارعًا في الصفّ الأول إلى الصلاة، حريصًا على الرواتب قبل الصلوات وبعدَها، يرونك صائمًا للنوافل، محافظًا على وردك من القرآن، منفقًا في وجوه الخير، متّبعًا للجنائز، متحرّيًا لأعمال البرّ، فيصدّق قولَك فعلُك. وقد قال عمرو بن عُتبة لمعلِّم ولده: «ليكُن أوّلَ إصلاحك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنّ عُيونهم مَعْقودةٌ بعَيْنك، فالحَسن عندهم ما صَنعتَ، والقبيح عندهم ما تَركت».

» **أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله حالَهم،** قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وعامِل من اختارك الله لتربيتهم كأبنائك حبًّا ونُصحًا ولينًا وإشفاقًا، واجعلهم يشعرون بذلك حقًا، وتعاهدهم بالدعاء لهم بالهداية والصلاح والرشاد في ظهر الغيب وأمامهم، وسترى ثمرة ذلك في حبِّهم لنُصحك وإرشادك، وتبرأ من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، فما اهتدى مدعوّ إلا بهداية الله، وما استجاب مستجيب إلا بتوفيق الله، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

» **لنغرس في نفوس المتربين أن العبرةَ في السنّة أن نفعلَها، والعبرةَ في المكروه أن نتركه، وليس العكس،** ولتكن هذه الإضاءات حاديةً للمربين لمزيدٍ من الأفكار والوسائل، هدفُنا أن نصل بمن استرعانا الله أمرهم إلى أن يتمثّلوا فعلَ الفاروق ﷺ وقولَه: «إني أعلم أنك حَجَرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك»[4]. فيتغيَر المفهومُ لديهم يقينًا وعملًا من: (إنها سُنّة .. فلماذا أفعلُها) إلى: (لأنها سُنّة.. سأداومُ عليها ولن أتركَها).

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨).
(٢) المعجم الكبير، للطبراني (٧٨٢٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢٢١١٩).
(٤) أخرجه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

تأصيل

الحقيقة العلمية وأثرها في الترجيح بين أقوال الفقهاء

د. عبد الفتاح محفوظ (*)

من القواعد المقرَّرة عند أهل العلم «أنَّ الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوّره»؛ لذا فقد اشترطوا في الفقيه معرفة الواقع والفقه فيه: واقع الناس، وأعرافهم، وعلومهم؛ ليكون تصوره للمسألة محل الفتوى صحيحًا سليمًا، فيكون بناء الحكم الشرعي عليها صحيحًا، وإن من أهم ما يؤثِّر في تصوّر الواقع الوقوفُ على الحقائق العلمية المكتشفة حديثًا، وفي هذا المقال بسط وافٍ للمقصود بالحقيقة العلمية، وكيفية تأثيرها في الحكم الفقهي.

المقدمة:

يمثل تعدُّد الأقوال الفقهية في المسائل الاجتهادية في التشريع الإسلامي ثروةً فقهية عظيمة لا مثيل لها، سواء في المذهب الفقهي الواحد أو في المذاهب الفقهية الأخرى، والتي لقيت العناية والاهتمام من الفقهاء على مرِّ العصور والأزمنة، بحثًا ومقارنةً وترجيحًا.

وترجيح أو قبول بعض الأقوال الاجتهادية دون غيرها ليس أمرًا سهلاً ويسيرًا كما قد يظنُّ الظانّ، فمرده أساسًا إلى البحث والاجتهاد في الأدلة ومعرفتها والكشف عنها، وليس إلى التشهِّي والهوى والرغبة في التنقُّل بين الأقوال بغير دليل أو برهان، بل هو أمرٌ مقيَّد وخاضعٌ لضوابطَ وقواعدَ صارمةٍ تعارف عليها الأصوليون والفقهاء، وناقشوها في مباحث أصوليةٍ عديدة منها مبحث التعارض والترجيح[1].

ومن المرجِّحات التي قد يُستعان بها في الترجيح عند التعارض بين أقوال الفقهاء في المسائل الاجتهادية: النظر في «الحقائق العلمية الصادرة عن أهل الخبرة والاختصاص»، والتي أصبحت تُوظَّف في بناء تصوُّر المسألة وخاصة في النوازل والمستجدات، إلى جانب الترجيح بين الأقوال الفقهية.

فما المراد بالحقيقة العلمية؟ وما ضوابط العمل بها؟ وما مكانتُها ومنزلتُها في الترجيح بين الأقوال

(*) متخصص في الفقه وأصوله بالمملكة المغربية.

(١) الترجيح في الاصطلاح هو: «تقوية أحد الطريقين على الآخر؛ ليُعلم الأقوى فيعمل به، ويطرح الآخر». المحصول في علم الأصول؛ للرازي (٣٨٧/٥).

الفقهية؟ في هذه المقالة محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال النقاط التالية.

تعريف الحقيقة العلمية:

فأما الحقيقة: فهي في اللغة: على وزن فعيلة من: حقَّ الشيء، إذا ثبت[١]، وحقَّقتُ الأمر وأحققته إذا تيقنته أو جعلته ثابتًا لازمًا، وحقيقة الشيء: منتهاه وأصله المشتمل عليه[٢].

وعرَّفها الإمام الجرجاني بقوله: «الشيء الثابت قطعًا ويقينًا، يقال: حقَّ الشيء، إذا ثبت، وهو اسم للشيء المستقر في محله...»[٣].

فهي تستعمل في مقابلة الفَرَضِ والوهم، ويراد بها حينئذٍ نفس الأمر[٤].

وأما العلمية: فهي مأخوذة من العلم، وهو نقيض الجهل[٥]، ومعرفة الشيء بمعنى عرفته وخبرته[٦].

وقال الجرجاني: «هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه»[٧].

وقال ابن عبد البر: «إنَّ العلم هو ما استيقنته وتبيَّنته، وكلُّ من استيقن شيئًا وتبينه فقد علمه»[٨].

الحقيقة العلمية:

تُطلق الحقيقة العلمية على كلِّ أمرٍ لا يمكن إنكاره، ويُقبل من قبل المجتمع العلمي كُلِّه بلا استثناء، ويمكن إثباتُ صحته بالملاحظة أو التجربة والاختبار[٩].

ويعرِّفها بعضهم بأنها: ما صار حقيقةً قاطعة، مما يتعلَّق بالكون والحياة والإنسان، والتي لا يمكن أن تبطل أو تنقض، مهما تقدمت علوم الإنسان ومكتشفاته ومعارفه[١٠].

ويفرِّق العلماء أثناء تعريفهم للحقيقة العلمية بينها وبين النظرية العلمية التي عُرفت بأنها: «افتراض» أو «تخمين» أو «ظن» يرد على فكر وذهن عالِم من العلماء في الفلك أو الجيولوجيا أو البيولوجيا وغيرها من العلوم الأخرى، نتيجة ظاهرةٍ رآها، أو تجربةٍ قام بها، أو ملاحظةٍ وقف عليها، أو حدثٍ أراد تفسيره... ويبقى في دائرة الظن والافتراض، فيسمّى ما يقدمه «نظرية» أو «فرضية علمية»[١١].

ويمكن أن تصبح وتتحوَّل هذه النظرية إلى حقيقةٍ علمية إذا وجد العلماء لها شواهد وأدلة وبراهين تؤيِّدها وتقرِّرها.

> **الحقائق العلمية من المرجِّحات التي يُستعان بها في الترجيح عند التعارض بين أقوال الفقهاء في المسائل الاجتهادية، وتُوظَّف في بناء تصوُّر المسألة وخاصة في النوازل والمستجدات**

حكم الأخذ بالحقيقة العلمية في الاجتهاد الفقهي:

وضع الأصوليون شروطًا للناظر في الفتاوى بين مُكثِر ومُقلٍّ[١٢]، وقد اختصرها الإمام ابن القيم رحمه الله في شرطين، هما:

- أولاً: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن، والأمارات، والعلامات، حتى يحيط به علمًا.

---

(١) التعريفات، للجرجاني، ص (٨٩).
(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس (١٥/٢). وينظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، ص (٣٦١)، و: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي (٦٨٤/١).
(٣) التعريفات، للجرجاني، ص (٨٩)، و: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص (٣٦١).
(٤) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، لعبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (٢٨/٢).
(٥) المرجع السابق، ص (١٥٥).
(٦) لسان العرب (٤١٧/١٢-٤١٨).
(٧) التعريفات، للجرجاني، ص (١٥٥). وينظر أيضًا: تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزَّبيدي (١٢٧/٣٣).
(٨) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، ص (٤٥).
(٩) الموقع التعليمي (متى وأين وكيف نتعلم؟) www.expii.com
(١٠) البيان في إعجاز القرآن، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، ص (٢٦٦).
(١١) البيان في إعجاز القرآن، ص (٢٦٤-٢٦٥).
(١٢) ينظر في شروط المفتي: أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، ص (٨٥)، والورقات، لإمام الحرمين، ص (٢٩)، والوجيز في أصول الفقه الإسلامي، للزحيلي (٣٨٠/٢).

- ثانيًا: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به، في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر[١].

والإحاطةُ بما يستجد ويظهر من الحقائق والدراسات العلمية التي لها ارتباط وصلة بالنوازل والمسائل الفقهية تندرجُ ضمن الشرط الأول المتعلق بفهم الواقع والإلمام به ومعرفته حق المعرفة.

ومن هنا أكَّد العديد من العلماء على أهمية الاستناد إلى ما قرره العلم في الحوادث المستجدة والاستعانة بها في إصدار الأحكام الشرعية، وهذا ما سلَكَته المجامع الفقهية المعاصرة، حيث اعتمدت في قراراتها وفتاواها على تقارير وأبحاث ودراسات علمية في قضايا شتى ونوازل عديدة، فما على الباحث إلا أن يلج إلى مواقع هذه المجامع الإلكترونية أو إصدارتها العلمية ليلحظ كثرة هذه الاستنادات العلمية في إصدار الأحكام والفتاوى، فهذا دليل واضح وجلي على أهمية الحقائق العلمية في فهم النازلة الفقهية وتصورها والحكم عليها، وقد قرر الأصوليون والمناطقة قاعدةً تطبَّق في هذا المجال، وهي: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وهذا لا يعني أن من شروط الاجتهاد في الأحكام الشرعية الإحاطة بالعلوم البحتة كالطب والفلك والفيزياء والكيمياء والطبيعة وغيرها، لكن القصد أن يستعان بالعلماء الذين أتقنوا هذه العلوم وبرعوا فيها، وعُرفت عنهم الثقة والعدالة عند بناء الحكم الشرعي وتصوره.

وفي هذا يقول الدكتور الزحيلي في معرض حديثه عن شروط المفتي وصفاته: «كما يجب على المفتي في الأمور الجديدة أن يستعين بأهل الخبرة والاختصاص في ذات القضية ليكشفوا له حقيقتها، ويعرف جوهر المسألة ليقول الحكم الشرعي المناسب لها»[٢].

والأخذ بالحقائق العلمية في الاجتهاد والافتاء يأخذ شكلين، نجملهما في الآتي:

أ. اختيار رأي من آراء الفقهاء في مسألة ناقشها أهل العلم وقرروا أقوالهم واجتهاداتهم فيها، لكن ظهرت حقائق علمية تكشف حقيقة المسألة الفقهية أكثر، فلترجيح قول من هذه الأقوال يُرجع إلى الحقائق العلمية في ذلك، والاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص.

ليس من شروط الاجتهاد في الأحكام الشرعية الإحاطة بالعلوم البحتة كالطب والفلك والفيزياء والكيمياء والطبيعة وغيرها، لكن على المفتي أن يستعين بالعلماء الذين أتقنوا هذه العلوم وبرعوا فيها، وعُرفت عنهم الثقة والعدالة عند بناء الحكم الشرعي وتصوره

ب. في الحوادث التي تستجدُّ وتظهر ولا يوجد لها مثيلٌ أو شبيهٌ في التراث الفقهي، فيمكن للمجتهد قبل أن يصدر الحكم المناسب أن يستعين بما قرَّره أهل الخبرة والاختصاص العلمي في المسألة التي تحتاج إلى ذلك.

ومن الأمثلة التي اعتمد فيها الاجتهاد الفقهي على الحقائق العلمية في إصدار الأحكام الشرعية على سبيل المثال لا الحصر: مسألة علامات الوفاة، وأثر الكشف الطبي عن حالات موت الدماغ، والذي بموته يمكن الحكم بنهاية الحياة الإنسانية[٣]، وما استجدَّ من وسائل علمية وحسابات دقيقة في مسائل رؤية الهلال[٤]، والكشوف الطبية في آثار تعاطي التدخين وغيرها من المسائل التي كان للحقيقة العلمية أثر بالغ في تصوُّر أحكامها.

ومن هنا نستنتج أنَّ الحقائق العلمية لها أثر في الحكم الشرعي تصورًا وبناء وترجيحًا، وهو الأمر الذي لا يتنافى مع منطق الشريعة الإسلامية؛ لأنها لا تتعارض مع ما ثبت من العلم أو تنافيه، فيبقى فقط معرفة الحقيقة العلمية والتأكُّد منها، وألا تكون مجرَّد افتراضات واحتمالات علمية.

ومما يمكن الاستئناس به هنا أنَّ الحقيقة العلمية عُدَّت عند بعض الباحثين المعاصرين قاعدةً من قواعد الترجيح في التفسير؛ يقول الدكتور فهد الرومي في هذا السياق: «إنَّ العلم الحديث قد يكون ضروريًا لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهمًا دقيقًا

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٦٩/١).
(٢) الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، للزحيلي (٣٨٠/٢).
(٣) تنظر تفاصيل هذه النازلة وما قرره الفقهاء والأطباء في ذلك: فقه النوازل، لبكر أبو زيد (٢١٣/١).
(٤) ينظر: فتوى رقم (٢٣٤٥) ، دار الإفتاء المصرية، الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/١٢/١٠. https://www.dar-alifta.org.

متوقفًا على تقدُّم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير، إذا كان للآية أكثر من معنى فيتعيَّن أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية»[١].

وهي مسألة مختلفة عن مسألة التفسير العلمي للقرآن الكريم، والتي عارضها عددٌ من أهل العلم وفصّل فيها آخرون[٢].

> **«ليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهمًا دقيقًا متوقفًا على تقدُّم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير، إذا كان للآية أكثر من معنى فيتعيَّن أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية»**
>
> **د. فهد بن عبد الرحمن الرومي**

أمثلة على أثر معرفة الحقيقة العلمية في الترجيح بين أقوال الفقهاء:

١. مسألة أقصى مدة الحمل:

اختلف الفقهاء في قضية أكثر مدة الحمل عند المرأة، على قولين[٣]:

القول الأول: إنَّ الحمل قد يمتدُّ أكثر من تسعة أشهر، وقد رُويت أقوال توصل هذه المدَّة إلى عدّة سنين، وقد نقل هذه الأقوال الإمام القرافي بقوله: «الفرق الخامس والسبعون والمائة، بين قاعدة الدائر بين النادر والغالب، يلحق بالغالب من جنسه، وبين قاعدة إلحاق الأولاد بالأزواج إلى خمس سنين، وقيل: إلى أربع، وهو قول الشافعي رحمه الله، وقيل: إلى سبع سنين، وكلها روايات عن مالك. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إلى سنتين...»[٤].

ولعل المسوِّغ الذي جعل الفقهاء يتوجهون إلى القول بطول مدّة الحمل استنادهم إلى الوجود في الواقع الذي عاشوه، من خلال وجود نساءٍ يحسَبن أنَّهن حوامل، ثم يستمرُّ الحمل هذه المدة، مع ما علموه من قصد الشريعة إلى الستر على الأعراض، والتضييق ما أمكن على احتمال التهمة بالزنى[٥].

القول الثاني: إن أقصى مدة الحمل هي المدة المعهودة تسعة أشهر، فقد ذهب ابن حزم رحمه الله إلى أنه لا يجوز أن يكون الحمل أكثر من تسعة أشهر[٦].

وفي العصر الحالي تقدمَّت الأبحاث والدراسات في هذا المجال، كما أنَّ وسائل الفحص والكشف والمراقبة أصبحت أكثر فاعلية ودقة نتيجة للتقنيات الحديثة المستخدمة، فأصبح إعادة النظر في تصور المسألة ضروريًا ومن ثم بناء الأحكام عليها.

ومن الأبحاث التي أُجريت في هذا الموضوع: أطروحة الدكتورة عائشة فضلي التي درست فيها مائة حالة ولادة، فوجدت أنَّ مُدد الحمل، اعتبارًا من بداية آخر حيضة قبل الحمل، تتراوح بين أمدٍ أدنى هو مائتان وخمسون يومًا (أي ثمانية أشهر وعشر أيام). وأمد أقصى هو ثلاثمائة وعشرة أيام (أي عشرة أشهر وعشرة أيام)، ومتوسط المدد هو: (٢٨١,٤٣ يوم) أي تسعة أشهر وأحد عشر يومًا ونصف يوم.

وهذه الدراسة بدَورها اعتمدت على دراساتٍ أخرى أكثرَ دقةً وشمولية ومن أهمها دراسةٌ كان فيها متوسط الحمل مائتان وستة وستون يومًا (تسعة أشهر إلا أربعة أيام)، وكانت أقصى مدة حمل فيها عشرة أشهر[٧].

وفي هذا السياق يرى الطبيب أحمد ترعاني -أخصائي الأمراض النسائية والتوليد- أنَّ الحمل

(١) دراسات في علوم القرآن الكريم، لفهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي، ص (٢٩٣). ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي (٦٠٤/٢).

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (٢٩٣)، و: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي (٥٧٨/٢)، و: مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، ص (١٦١). ومن الأبحاث المتخصصة: «التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق» للدكتورة هند شلبي، والتفسير العلمي للقرآن في الميزان، للدكتور أحمد عمر أبو حجر. والإعجاز العلمي إلى أين؟ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، والتفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ضوابط وتطبيقات، للدكتور مرهف عبدالجبار سقا.

(٣) ينظر تفصيل هذه المسألة والأقوال فيها في: أحكام المرأة الحامل في الشريعة الإسلامية، ليحيى عبدالرحمن الخطيب، ص (١٠٢)، و: الموسوعة الطبية الفقهية، لأحمد محمد كنعان، ص (٣٧٥).

(٤) الفروق، للقرافي (٢٠٣/٣).

(٥) نظرية التقريب والتغليب، لأحمد الريسوني، ص (٢٨٩).

(٦) المحلى، لابن حزم الظاهري (١٣٢/١٠).

(٧) ينظر: أطروحة الدكتورة فضلي بكلية الطب بالرباط برقم ٤٧٨-سنة ١٩٨٥، بعنوان: معدل الحمل العادي، ص (٥٦-٦٨).

متى يؤخذ بالحقيقة العلمية الثابتة في الفتوى؟

١ عند ترجيح رأي فقهي في مسألة ناقشها أهل العلم وقرروا أقوالهم واجتهاداتهم فيها

٢ في الحوادث التي تستجدُّ وتظهر ولا يوجد لها مثيلٌ أو شبيهٌ في التراث الفقهي

قد يصل إلى عشرة شهور، ولا يزيد على ذلك؛ لأن المشيمة التي تُغذِّي الجنين تصاب بالشيخوخة بعد الشهر التاسع، وتقل كمية الأكسجين والغذاء المارَّين من المشيمة إلى الجنين فيموت الجنين[١].

وقال الدكتور أحمد محمد كنعان في ختام نقاشه لهذا المسألة من وجهة الفقه والقانون والطب: «ومع تطور علوم الطب ومتابعة الحوامل بصورةٍ دورية، فقد صار بإمكاننا التأكُّد من عمر الحمل بدقة، وقد رصد الأطباء المتخصصون بأمراض النساء والولادة في العصر الحديث ملايين الحالات، ولم تسجل لديهم حالات حمل مديد طبيعية يدوم لسنة واحدة، ناهيك عن عدَّة سنين.

ومن هنا فإنَّ أحكام الحمل يجب أن تُبنى على الحقائق، وليس على الظن أو الروايات التي لا أساس لها من الصحة»[٢].

ومن خلال ما توصَّلت إليه الأبحاث والدراسات الحديثة وما قرَّره أهل الخبرة والاختصاص في المسألة رأى فريق من أهل العلم ترجيح القول الثاني في مسألة أقصى مدة الحمل[٣].

ويلحظ أنه مع وجود بعض الاختلافات في أقوال المتخصصين والقوانين الطبية والأسرية في تحديد أقصى مدة الحمل إلا أنها اختلافات في جزئية معينة لا تؤثر على أصل المسألة، وهي راجعة لضبط بداية حصول الحمل.

> **الحقيقة العلمية التي يُعتد بها في الاجتهاد الفقهي هي التي خرجت من مجال الفروض والاحتمالات إلى مجال اليقين، لذلك لا يؤخذ بالنظرية العلمية؛ لأنَّها تفسيرية للظواهر، ولم تصل بعد إلى مكانة ومنزلة الحقيقة العلمية الثابتة**

٢. حكم استخدام الحقن العلاجية أثناء الصيام:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنَّ علّة التفطير بالأكل والشرب هي وصول شيءٍ إلى الجوف أو الحلق أو الدماغ، سواء أكان مما يتغذَّى به البدن أم لا يتغذى به، وسواء أكان هذا الشيء دخل من منفذ معتاد للطعام والشراب أو من منفذ غير معتاد، إلا أن أقوالهم تباينت في بعض الأمور الأخرى كالاكتحال والاحتقان والسعوط[٤] والتقطير في الأذن وغير ذلك هل تفطِّر أم لا؟ على قولين:

(١) أحكام المرأة الحامل في الشريعة الإسلامية، ليحيى عبد الرحمن الخطيب، ص (١٠٦).

(٢) الموسوعة الطبية الفقهية، للدكتور أحمد محمد كنعان، ص (٣٧٧).

(٣) ينظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في دورته:٢١ المنعقدة في مكة في موضوع: مدّة الحمل، وقد قرر المجمع بعد الاستعانة بالأبحاث الطبيه والعلمية أن مدة الحمل لا تتجاوز تسعة أشهر؛ لأن الطب الحديث المتعلق بالحمل عبر التحاليل المخبرية، والتصوير بالموجات فوق صوتية وغيرهما، أنه لم يثبت أن واصل الحياة حمل داخل الرحم لأكثر من تسعة أشهر إلا أسابيع قليلة، لكن نظرًا لاحتمال الخطأ في حساب الحمل قرر المجمع جعل مدة الحمل سنة واحدة. https://www.iifa-aifi.org

(٤) هو أن يُصَبَّ الدواءُ في الأنف، ينظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لمحمد الدسوقي (٥٠٣/٢)، و: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر الجوهري (١١٣١/٣).

القول الأول: فساد صوم من تعاطى هذه الأشياء ودخلت إلى جوفه، وهو قول الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة[١].

القول الثاني: ذهب أصحاب هذا القول إلى أنَّ أدلة الكتاب والسنة الواردة في هذا الشأن تدلُّ على أنَّ فساد الصوم يكون بالأكل والشرب، ويُلحق بهما ما في معناهما مما يتغذى به بَدَنُ الإنسان ويتقوّى به، وما عدا ذلك لا يمكننا أن نُطلق عليه مسمّى الأكل والشرب، نقل هذا الإمام ابن حزم الظاهري[٢]، وقد حُكي عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، وعن الحسن بن صالح[٣].

وهذه المسألة التي ناقشها الفقهاء قديمًا طُرحت في عصرنا الحاضر، وكثر السؤال والاستفتاء عنها، وظهرت فيها مستجدات من قبيل استخدام الحقن العلاجية أثناء الصيام مثل: الحُقن الجلدية، والحُقن العضلية، والحُقن الوريدية وغيرها.

وقد استندت العديد من هذه الفتاوى على دراسات علمية طبية، ومن ذلك قرار «مجلس مجمع الفقه الإسلامي» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ونصه: «إنَّ مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره العاشر بجدة بالمملكة العربية السعودية... بعد اطلاعه على البحوث المقدَّمة في موضوع المفطِّرات في مجال التداوي، والدراسات والبحوث والتوصيات الصادرة عن الندوة الفقهية الطبية التاسعة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، بالتعاون مع المجمع وجهاتٍ أخرى، في الدار البيضاء بالمملكة المغربية في الفترة من ٩ - ١٢ صفر ١٤١٨هـ الموافق ١٤ - ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٩٧م، واستماعه للمناقشات التي دارت حول الموضوع بمشاركة الفقهاء والأطباء، والنظر في الأدلة من الكتاب والسنة، وفي كلام الفقهاء، قرر ما يلي:

أولاً: الأمور الآتية لا تعتبر من المفطِّرات، وذكر ضمنها: «الحُقن العلاجية الجلدية أو العضلية أو الوريدية، باستثناء السوائل والحقن المغذية».

وهذا قريب مما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «وأما الكُحل والحقنة وما يقطر في إحليله ومداواة المأمومة والجائفة فهذا مما تنازع فيه أهل العلم، فمنهم من لم يُفَطِّر بشيءٍ من ذلك، ومنهم من فَطَّر بالجميع لا بالكحل، ومنهم من فَطَّر بالجميع لا بالتقطير، ومنهم من لم يُفَطِّر بالكحل ولا بالتقطير، ويُفَطِّر بما سوى ذلك، والأظهر أنه لا يفطر بشيءٍ من ذلك...»[٤].

ولا ريب أنَّ الرجوع المباشر إلى الأطباء في توصيف الحقن العلاجية، وبيان وظائفها، ومناقشة الفقهاء لهم في ذلك، من أهم طرق تصوير المسألة، ومعرفة حقيقتها، ومايترتب عليها.

> **الأخذ بالحقيقة العلمية هو أخذٌ بما أذن الله به ويسّره من علوم ومعارف، وما أرشد إليه العقل البشري وهداه، وهو نتاجُ أمرِهِ بالتدبُّر والنظر في الكون**

٣. حكم القيافة في إثبات النسب عند التنازع[٥]:

ذكر الفقهاء الأدلة التي تُستخدم في إثبات النسب عند التنازع بين الزوجين، من قبيل الفراش (أي وجود عقد الزوجية) والإقرار، والبينة، وحكم القاضي، والقيافة[٦]، وقد اختلف العلماء في الدليل الأخير المتعلق بالقيافة: هل تصلح دليلاً لإثبات النسب أم لا؟ على قولين:

القول الأول: جواز اعتماد القيافة في إثبات النسب عند الاشتباه والتنازع وعدم وجود دليل أقوى منها، وقد ذهب إلى هذا القول جمهور المالكية والشافعية والحنابلة[٧].

---

(١) ينظر: البحر الرائق، لابن نجيم المصري (٤٨١/٢)، و: الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي (٥٢٣/١-٥٢٤)، و:المجموع شرح المهذب، للنووي (٣٤٠/٦)، و: المغني، لابن قدامة (١٢١/٣).

(٢) ينظر: المحلى، لابن حزم (٣٤٨/٤).

(٣) المغني، لابن قدامة (٣٥٠/٤).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٣٣/٢٥-٢٣٤).

(٥) التنازع هنا بمعنى الاختلاف، فالفقهاء يستعملون مصطلح «التنازع» أحيانًا بمعنى: الاختلاف. ينظر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، لمحمود عبدالرحمن عبدالمنعم (٤٥/٢).

(٦) القيافة لغةً: من قاف الأثر قيافة، واقتافه اقتيافًا، وقافه يقوفه قوفًا وتقوفه: تتبعه. لسان العرب، لابن منظور (٢٩٣/٩)، واصطلاحًا: هو الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود. التعريفات، للجرجاني، ص (١٤٣)، باب القاف مع الألف.

(٧) ينظر: بداية المجتهد، لابن رشد الحفيد (١٤٢/٤)، المنتقى، للباجي (١٤/٦)، ومنح الجليل، لعليش (٤٩١/٦)، والأم، للشافعي (٢٦٥/٦)، ومغني المحتاج، للشربيني (٤٣٩/٦)، والمغني، لابن قدامة (٣٧٥/٨)، وشرح منتهى الإرادات (٣٩٤/٢).

القول الثاني: أن النسب لا يثبت بالقيافة، وهو قول ينسب إلى الأحناف، وقالوا: العمل بها تعويل على مجرد الشبه، وقد يقع بين الأجانب، وينتفي بين الأقارب[١].

وقد قوى العلم الحديث القول الذي يأخذ بالقيافة في إثبات النسب، وذلك من خلال إقرار أهل العلم الأخذ بالوسائل الحديثة في إثبات النسب وفي طليعتها البصمة الوراثية والحمض النووي (DNA)[٢] التي لا تتناقض مع أحكام الفقه الإسلامي.

وفي هذا السياق اعتبر مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته السادسة عشرة المنعقدة بمكة المكرمة خلال سنة ٢٠٠٢م أنَّ نتائج البصمة الوراثية تكاد تكون قطعيةً في إثبات نسبة الأولاد إلى الوالدين، ونفيهم عنهما، وهي أقوى بكثير من القيافة؛ لأنَّ الخطأ في البصمة الوراثية ليس واردًا من حيث هي، وإنما الخطأ في الجهد البشري، وتم وضع ضوابط لإجراء هذه البصمة[٣].

وبذلك فاعتماد البصمة الوراثية وغيرها من الوسائل العلمية المتاحة لمعرفة النسب المتنازع فيه يقرُّ ضمنًا بجواز ومشروعية القيافة عند القائلين بها؛ لأن هذه الوسيلة هي التي كانت متاحة قديمًا، كما أن إقرارها من طرف الفقهاء في الفقه الإسلامي دليل على مشروعية الوسائل العلمية الحديثة.

الخاتمة:

الحقيقة العلمية التي يُعتد بها في الاجتهاد الفقهي هي التي خرجت من مجال الفروض والاحتمالات إلى مجال اليقين، لذلك لا يؤخذ بالنظرية العلمية؛ لأنَّها تفسيرية للظواهر، ولم تصل بعد إلى مكانة ومنزلة الحقيقة العلمية الثابتة.

والأخذ بالحقيقة العلمية هو أخذٌ بما أذن الله به ويسّره من علوم ومعارف، وما أرشد إليه العقل البشري وهداه، وهو نتاجُ أمرِهِ بالتدبُّر والنظر في الكون، والأخذ به في مجال الفقه الإسلامي يكون بأحد طريقين: المسائل الفقهية التي تكلَّم فيها الفقهاء واختلفوا فيها، أو بما له ارتباط بالنوازل المعاصرة التي يستعان فيها بالحقائق العلمية إن وجدت الحاجة إليها.

وقد أسهمت الدراسات العلمية الحديثة وما نتج عنها من حقائق علمية في العديد من الأبحاث الفقهية من حيث التصور أو بناء المسألة، فهي مجال بحث واجتهاد واسع في مختلف المسائل الفقهية والقضائية.

(١) ينظر: المبسوط، للسرخسي (٧٠/١٧)، وبدائع الصنائع، لعلاء الدين الكاساني (٢٤٢/٦).

(٢) وقد عرفها الدكتور وهبة الزحيلي: «المادة المورِثة الحاملة لصفات وخصائص معينة، الموجودة في خلايا جميع الكائنات الحية»، البصمة الوراثية ومجالات الاستفادة منها، للدكتور وهبة الزحيلي، بحث مقدم للدورة السادسة عشرة للمجمع الفقهي الإسلامي، ص (٥).

(٣) إثبات النسب ونفيه بالتحاليل الطبية، مقارنة تشريعية وفقهية وقضائية، ليوسف فلالي محسن، نائب رئيس المحكمة الابتدائية -مكناس، ص (٦).

قضايا معاصرة

هل أصبح الإلحاد والشذوذ وجهات نظر بين شباب المسلمين؟!

أ. رأفت صلاح الدين (*)

تعدَّدت أصناف الانحرافات الدينية والسلوكية في هذا الزمان وتكاثرت، واستمرأها البعض حتى صار قابلاً للتعايش معها، بل تعدى ذلك إلى إيجاد مبررات ومسوغات متهافتة لها، تارة بزعم مسؤولية المجتمع، وأخرى بحجة «المرض»، ونحو ذلك، وفي هذا المقال إلقاء الضوء على هذه الظاهرة ومناقشة حججها المسوقة مناقشة عميقة هادئة.

مدخل:

تطفو على السطح بين الفينة والأخرى قضيةُ حكم ومصير الملحدين والشواذ، عندما نسمع بموت أو انتحار أحدهم، فيختلف الناس بين رافضٍ للدعاء والاستغفار لهم؛ لأنَّ الملحد مرتد لا يستحق رحمة الله وغفرانه ما لم يتب، والشاذّ فاجر بارتكابه كبيرةً من أعظم الكبائر، وبين راغبٍ في الاستغفار لهم ومجيزٍ للدعاء لهم بالرحمة؛ تحت ذريعة أنّهم ضحايا لضغوط المجتمع والمشاكل الأسرية، وأنّهم أشبه بالمرضى الذين يحتاجون معاملةً خاصّة، وأنّهم أولى بالشفقة عليهم لا اتهامهم وتجريمهم، وقد يزيدون على ذلك باعتبارهم مرضى نفسيين لا اختيار لهم فيما وصلوا إليه من إلحاد أو شذوذ.

لن نناقش هنا قضية الإلحاد أو الشذوذ الجنسي، فهذه المسائل قُتلت بحثًا، وليست هدفنا، لكن الهدف مناقشة مَن يبحثون عن مبرّرات للإلحاد أو الشذوذ، أو مَن ينظرون بنوع شفقة وتبرير لمن وقعوا في هذه المصائب، نظرة تمنعهم من رؤية القضية رؤية متكاملة.

الفعل مسؤولية شخصية:

من المقطوع به شرعًا وعقلاً وعُرفًا مسؤولية الإنسان عن أفعاله واختياراته وسلوكياته، وقد أقرَّت بذلك المناهج الغربية ونظمها وقوانينها الوضعية.

أما في شرعنا فقد أثبتَ الله عزّ وجلّ في كتابه ذلك في كثير من الآيات الجازمة بمسؤولية الإنسان

(*) صحفي وباحث مصري، مدير تحرير مجلة قراءات إفريقية سابقًا.

عن اختياراته وتصرفاته، خيرًا كانت أو شرًّا، قال تعالى:

* ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].
* وقال: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].
* وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].
* وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

فهذه الآيات وغيرها الكثير تبيّن حقيقة المسؤولية الشخصية بجلاء، ولولا خوف الإطالة لجئنا بعشرات غيرها، لكن العاقل تكفيه آية واحدة.

> **من المقطوع به شرعًا وعقلاً وعُرفًا مسؤولية الإنسان عن أفعاله واختياراته وسلوكياته، وقد أقرَّت بذلك المناهج الغربية ونظمها وقوانينها الوضعية، ولولا ذلك لما نزلت الشرائع ولا أُقرت القوانين**

أما الأحاديث التي تؤكّد مسؤولية الإنسان عن أفعاله، فهي أيضًا كثيرة، منها:

* حديثُ أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمالُ بالنيات؛ وإنما لكلِ امرئٍ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكِحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[١].
* وحديث معاذ بن جبل ﷺ: قلت: (يا نبيَّ الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: ثَكِلتكَ أُمّك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم -أو على مَنَاخِرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم)[٢].
* وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فِيمَ أفناه، وعن علمه فِيمَ فعل فيه، وعن مَالِه من أين اكتسبه وفِيمَ أنفقه، وعن جسمه فِيمَ أبلاه)[٣].
* وقال رسول الله ﷺ: (رُفِع القلم عن ثلاثة؛ عن النائم حتى يستيقظ، وعن المُبتلى حتى يَبرأ، وعن الصَّبيِّ حتى يكبر)[٤].
* وفي الحديث: (لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول مَن سَنَّ القتل)[٥]، وذكر النووي في شرحه: «وهذا الحديث من قواعد الإسلام وهو أن كل من ابتدع شيئًا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة»[٦]، فتأمّل هَول المسؤولية الفردية عن مثل ذلك العدد، وتفكّر في اختلاف تطبيقات حرّية الرأي والفعل بين التصوّر الشرعي وغيره من التصورات البشريّة الأجنبية.

خطيئة المجتمع أو الأسرة لا تبرر خطيئة الفرد:

لا يخفى على كلّ ذي عقل مدى التأثير السلبي للضغوط المجتمعية والمشاكل الأسرية على شخصية الإنسان، لكنّها ليست مبرّرًا لإلغاء شخصيته واختياراته وإلقاء اللوم عليها.

فالزعم بأنّ الملحد أو من يعمل عمل قوم لوط هم ضحايا مجتمع أو أسرة هي رؤية ناقصة قاصرة، فالصالحون والطالحون يعيشون في المجتمع نفسه، ويتعرض الكثير منهم لمثل ما يتعرض له هؤلاء من الظلم والاضطهاد، ومع ذلك نراهم يقاومون ويسلكون الطريق الصحيح، مما يدل على أن الشخص مسؤول عن اختياراته وأفعاله؛ فالصالح يختار الصلاح والتقوى، والطالح يختار الإلحاد أو الشذوذ. وقلَّ أن تجد إنسانًا لا يتعرض إلى ضغوط وابتلاءات، فقويُّ الإيمان يصبر ويثبت ويحتسب، ولا تزيده المحن والضغوط إلا تمسّكًا بإيمانه، واقترابًا من خالقه، وأمّا ضعيف الايمان فبمجرّد

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٧).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨).
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٦٦).

أن يتعرّض لابتلاءات تجده ينقلب على عقبيه، هذا إذا سلّمنا جدلاً أنّ الملحد أو الشاذ يتعرّض لضغوط من الأساس، لذا فهما لا يستويان، ولا مبرر لمن ينحرف فالطريقان أمامه وهو من اختار.

ولا شك أن على المخطئ من أفراد الأسرة أو المجتمع نصيبه من المسؤولية والإثم فيما يوقعه على غيره من الظلم والاضطهاد والانحراف، لكن هذا لا يلغي مسؤولية الآخر عما يعتنقه من أفكار وما يفعله من أمور، فكل مسؤولٌ عن نصيبه من ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلكل منهم نصيب من المسؤولية لا يلغي مسؤولية الآخر.

أما البحثُ عن مبرر لارتكاب الموبقات بتحميل الآخرين أسبابَ ارتكابها فهي منهجيةٌ شيطانيةٌ، سلكها إبليس لتبرير معصيته أمرَ الله له بالسجود لآدم، فمع أنّه قد عصى متعمّدًا لأنّه يرى نفسه أفضل منه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، إلّا أنّه نَسَب وقوعه في هذا الضلال لله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]

> **لا شك أن على المخطئ من أفراد الأسرة أو المجتمع نصيبه من المسؤولية والإثم فيما يوقعه على غيره من الظلم والاضطهاد والانحراف، لكن هذا لا يلغي مسؤولية الآخر عما يعتنقه من أفكار وما يفعله من أمور، فكل مسؤولٌ عن نصيبه من ذلك**

فلا مبرر لانحراف الشخص -إن لم يكن جاهلاً- إلا رغبته في الانحراف، ورضاه بذلك، وميل نفسه لهذا المنكر وضعفه أمامه.

ومن كان جاهلاً بسبب تربية ونحوها فباب التوبة مفتوح بعد علمه بمعصيته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. وينبغي على العاصي أن يبادر بالتوبة ولا يلقي اللوم على الآخرين؛ فآدم عليه السلام وزوجه اعترفا بذنبهما رغم إغواء إبليس لهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وإلا لماذا خلق الله الجنة والنار؟! ولماذا جعل العبادَ فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير؟!

> **البحثُ عن مبرر لارتكاب الموبقات بتحميل الأسباب للآخرين منهجيةٌ شيطانيةٌ، سلكها إبليس لتبرير معصيته لأمر الله بالسجود لآدم، فمع أنّه عصى متعمّدًا إلّا أنّه نَسَب وقوعه في هذا الضلال لله عزّ وجلّ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾**

المعصية ليست مرضًا نفسيًا:

تحويل القضية لمرض نفسي أو ضغوط مجتمعية وأسرية كلام غير دقيق أو علمي، فحتى المناهج العلمية الغربية تركّز على قضية مسؤولية الإنسان على أفعاله، وأنّ الشخص الذي يخضع للضغوط فيغيّر من سلوكه هو إنسان ضعيف، وأنّ القوة النفسية -وفق النظريات العلمية الغربية- تظهر عندما يتحمّل الإنسان الضغوط النفسية؛ فكلما كان تحمله أكثر دلّ ذلك على قوته.

وتعتمد النظريات الغربية في حلّ العُقَدِ النفسية بالأساس بالاعتماد على ذات الإنسان وقوّته قبل كل شيء؛ من هنا تجد الكثير جدًا من المتخصصين النفسانيين يؤكّدون على أهمية إتاحة الفرصة للإنسان لإثبات ذاته وإبراز قوته للخروج من أزماته النفسية.

أي أنّ ما يعتبره البعض مبرّرًا للانحراف هو في حدّ ذاته أهم عوامل التغلّب على هذه الانتكاسات السلوكية والأخلاقية وفق نظريات علم النفس من المنظور الغربي.

وقد أفردت كثير من الدراسات والأبحاث التي تتحدّث عن الشخصية القوية وخصائصها ومكوناتها وكيفية تنميتها، وأنّها هي الأساس للنهوض بالمجتمع، وأنّ الشخص الضعيف لا فائدة منه، بل هو مفسدٌ للمجتمع خطرٌ عليه.

مما يعني أن على الشخص الواقع في الخطأ والانحراف أن يتعرف على مكامن الخطأ فيه، ومنها ضعف شخصيته أو اهتزازها أمام الضغوطات والشبهات والشهوات، وأن يتعلم كيفية مواجهتها والتعامل معها، كما يتعلم التعامل مع ضغوطات

الحياة وصعوبات تحصيل الرزق، لا أن يخضع لها وينساق ثم يرمي عليها بالمسؤولية!

آثار إشاعة مثل هذه الأفكار والأقوال:

عَمَلُ شياطين الإنس على استغلال نفي المسؤولية الشخصية عما يقع فيه الشخص من انحرافات وأخطاء على نشرها في مجتمعاتنا الإسلامية بحجّة أنّها سلوك طبيعي وحاجة فطرية لا دخل للإنسان فيها، فلا أحد يختار معتقده أو ميوله الجنسية؛ يُوضّحُ لنا مدى استماتتهم في إيجاد المبررات للملحدين والمنحرفين لأفعالهم، وإعطائهم الحرية في ممارسة سلوكياتهم الشاذة، ثم ليسهل بعد ذلك نشرها في المجتمعات.

وأتاح لهم -أيضًا- معاداةَ ومحاربةَ كلّ من يرفض هذه الانحرافات والتشنيعَ عليه، وإرهابَ كلّ من يفضح أفكارهم وخططهم ويُظهر حقيقتهم، وهم موجودون في الإعلام والصحافة والأدب والثقافة والفن، وقد نجحوا في أن يتبوؤوا المكانة والشهرة والمال الذي يعينهم على إنجاح مخططهم، لكنّ الله لهم بالمرصاد دائمًا، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

> **إيجاد المبررات للملحدين والمنحرفين لأفعالهم، وإعطائهم الحرية في ممارسة سلوكياتهم الشاذة، وصولاً إلى تسهيل نشرها في المجتمعات من أخطر نتائج الدعاوى الباطلة بأن الانحرافات سلوك طبيعي فطري لا دخل للإنسان في اختيارها**

إن استسهال البعض لوجود هذه المعتقدات والسلوكيات، واعتبارها أمرًا عاديًا وحرّية شخصية؛ أدّى لانتشارها وتوغّلها في مجتمعاتنا مؤخّرًا، حتى اعتاد البعض على رؤية أصحاب هذه الموبقات، وكثيرًا ما نسمع من يقول: لي أصدقاء ملحدون أو شواذ! ومن ناحية أخرى: خوفُ البعض أن يُتّهَم بالرجعية ومعاداة حقوق الإنسان؛ على أساس أنّ هذه السلوكيات البهيمية أصبحت من حقوق الإنسان وفق مبادئ الحضارة الغربية المعاصرة. بل صارت أهم معيار لتحديد مدى اندماج البعض في مفاهيم التحضّر والتنوير والمدنية، وأنّ العكس يوصف بالرجعية والظلامية والتخلّف، لذا يَخشى كثيرٌ من الناس من هذا التصنيف، فيبادرون بالدفاع عن الملحدين والشواذ.

نظرة واقعية:

بالنظر لواقع الملحدين -ونحن نتحدّث عن قضية واقعية مشاهدة مطّلعين عليها وليست قضية غيبية أو خيالية- نجد أنّ معظمهم منحرف أخلاقيًا، وحياتُه وسلوكياتُه قائمة على معاندة الوحي والأوامر الربانية، وكلُّ ما يفعله أنّه يبحث عن المبرّر لكي يتحرّر من الضوابط الشرعية، فأقصر طريق لديه هو إعلان رفضه للشرع وللمشرّع، ثم تلبيس ذلك مسوح العقلانية والعلمية؛ حتى يعطي لنفسه مساحةً للمناورة والمحاورة والجدال.

والأمر كذلك بالنسبة للشذوذ، فهو انحراف عن الجادّة السويّة، لكنّ المنحرفين والمنحرفات يحاولون تلمّس مبررات واهية للهروب من الاستحقاقات الشرعية، ولينجوا من الخزي والوصمة بالعار من المجتمع والناس، بل وليجدوا بين الناس من يتعاطف معهم! فيلقون اللوم على الضغوط المجتمعية أو على تعرّضهم للاغتصاب في مرحلة الطفولة مثلاً؛ مما سبّب عندهم عُقَدًا نفسية، أو مرضًا لا يستطيعون البُرءَ منه، فوقعوا ضحايا لهذا الشذوذ.

ونحن لا ننكر تعرض البعض لمثل هذا الظلم والبلاء، وتسلط عديمي الشرف والمروءة على البعض، لكن لكل مشكلة حلّ، فقد يكون الحلّ شرعيًا أو طبيًا أو قانونيًا، ولا مبرّر مطلقًا لاستمراء المنكر والانخراط فيه، بل وتطبيعه!

بعض الملحدين يتبنّون الإلحاد كتقليعةٍ أو «موضة» من الموضات، أو رغبةٍ في التفرّد والتميّز، أو لأنّه مثقّفٌ ومطّلعٌ ومفكّرٌ قادته عبقريته الجوفاء لإنكار الإله! يعتبرون هذا نوعًا من الذكاء الذي قادهم إلى عدم الخضوع لما يخضع له الرجعيون الجاهلون، ويتعاملون بكبر وتنمّر مع غيرهم، ويشعرون بأنّهم أتوا بما لم يأت به غيرهم، مع أنّ الإلحاد قضية قديمة.

فلماذا يُتعب البعض نفسه في إيجاد مبرّر لإلحاد هؤلاء، وهم يعتبرونه نقطة تفرّد وتميّز وعلوّ وفخر لهم عن المؤمنين المتخلّفين من وجهة نظرهم؟

إن مشاهدة الشباب الواقعين في الإلحاد أو الشذوذ وهم يدافعون عن انحرافاتهم ينزعُ عنهم

الابتلاءات تصيب الجميع

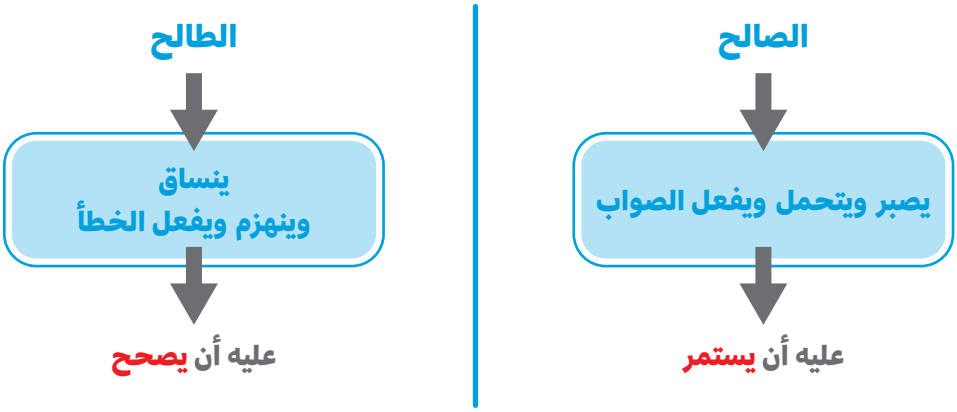

أيّ حجّة في تعرّضهم لضغوط أو مشكلات، تجدهم يدافعون وينافحون ويجادلون بقوّة وبمبررات عديدة، مع جرأة في الطرح، وتسفيه للمخالفين والمعارضين لهم، والسخرية من سلوكيات وأخلاق المجتمعات الرجعية التي ما زالت متمسكة بقيم وأخلاق بالية! بل يعتبرون هذه القيم السلوكية والأخلاق السويّة سببَ التخلّف، وهم في كلّ ذلك يدافعون وينافحون بصَلَف وغرور وشعور بالفوقية لا يوصف، ولم لا وهم العباقرة الذين قادتهم عبقريتهم وثقافتهم وتنويرهم لمثل هذه الفهوم والسلوكيات؟

لذا فلا داعيَ لأن يُتعب الناس أنفسهم للتبرير والدفاع عنهم، في قضية هم ينفونها ولا يلتزمون بها، فكل ما يعتقدونه ويسلكونه هو بمحض إرادتهم وباختياراتهم، وعن اقتناع، بل يدافعون وينافحون ويسفهون مخالفيهم.

ويسخرون من معتقدات وقيم وأخلاق الإسلام التي يطلب البعض لهم من خلالها الرحمة والمغفرة!

ختامًا:

ليس في كلامنا هذا ما يدّعيه البعض بأنّه محاولة التألّي على الله باحتكار وحجب رحمته عن خلقه، وحصر وكالة العفو والمغفرة في يد أشخاص معينين، فاللهُ بيّنَ في كتابه وسنة نبيه ﷺ مَن يستحقّ عفوه ورضوانه والفوز بجنانه، ولا دخل لأيّ بشرٍ بذلك. وغاية ما في الأمر أنّنا نوضّح المعتقدات والسلوكيات والأخلاق التي تبعد الإنسان عن ربه، وتجعله يقع تحت طائلة عذابه وغضبه، والتي من أعظمها الردّة والإلحاد بإنكار وجود الله وهذا أعظم الجحود والانتكاس. ونوضّح الكبائر من الذنوب والتي من أعظمها عمل قوم لوط، والتي أمر النبي ﷺ بقتل من يقوم بها سواء كان فاعلاً أو مفعولاً به.

فلا مجال لغلق أعيننا أمام حقائق ربانية أكّدها المولى عزّ وجلّ، ولا مجال للمجاملة على حساب أصول شرعية وعرفية أقرّها الله ورسوله ﷺ، والتزمتها الأمّة طيلة قرون من الزمن، وهي حقائقُ أثبتُ من الجبال وأوضحُ من ضوء الشمس في رابعة النهار.

قراءة في كتاب: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، للدكتور محمد عمارة

أ. غسان أسود(*)

الحرب الثقافية التي تواجهها أمتنا اليوم متعددة الأدوات والأسلحة، ومن أبرز أدواتها التسميات والمصطلحات التي أصبحت جزءًا من واقعنا الفكري والثقافي، وبالرغم من وجود بون في مضامين هذه المصطلحات بين ثقافتنا وثقافتهم، إلا أن المضامين الغربية سادت في فضاءاتنا الفكرية والإعلامية، وكان لها أثر في التكوين الفكري لشباب الأمة ومثقفيها، وهذا الكتاب يعالج هذه القضية.

التعريف بالكتاب:

يقع الكتاب في مقدّمة وفصل واحد يحرّر مضامين المصطلحات بين الغرب والإسلام، استغرق (٢٢٢) صفحة من القطع المتوسط.

التعريف بالمؤلّف:

الدكتور محمد عمارة، مفكر إسلامي مصري، ومؤلف ومحقّق وعضو مجمّع البحوث الإسلامية بالأزهر، وهيئة كبار علماء الأزهر، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

ولد في رجب عام ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، مرّ خلال حياته بتحوّلات فكرية نقلته من الاتجاه الماركسي إلى المعسكر الإسلامي، اشتهر بكونه من «الإسلاميين المستقلّين» الذين دافعوا عن رسالة الإسلام وأمّته وقضاياها المعاصرة، وزادت مؤلفاته وأبحاثه على المئتين.

توفي رحمه الله في رجب عام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م.

تمهيد:

ذكر المؤلّف أنّ من العبارات الشائعة على ألسنة المثقفين والعلماء عبارة: (لا مشاحّة في الألفاظ والمصطلحات).

وقال: إنّ هذه العبارة صحيحة، إلا أنّها تحتاج إلى ضبط مفهومها؛ حتى لا يشيع منها الخلط بل والخداع كما هو حادث الآن لدى عديد من دوائر

(*) إجازات قرآنية، مدرس في جمعية لتعليم القرآن الكريم.

الفكر التي تردّدها دون ضبط وتحديد لما يوحي به ظاهرها من مضمون.

فنحن إذا نظرنا إلى أي مصطلح باعتباره «وعاءً» يوضع فيه «مضمون» من المضامين، وبحسبانه «أداة» تحمل «رسالة أو معنى»؛ فسنجد صلاحية الكثير من المصطلحات لأداء دور «الأوعية» و«الأدوات» على امتداد الحضارات المختلقة، والأنساق الفكرية المتعدّدة، والعقائد والمذهبيات المتميّزة ... أمّا إذا نظرنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات من زاوية «المضامين» التي توضع في أوعيتها، ومن حيث الرسائل التي حملتها «الأدوات: المصطلحات» فسنكون بحاجة إلى ضبط معنى هذه العبارة، وتقييد إطلاقها وتحديد نطاق الصلاح والصلاحية التي يشيع عمومها من عموم ما تحمل من ألفاظ.

عند الفحص والتدقيق في المصطلحات نجد أنفسنا أمام «أوعية» عامّة و«أدوات» مشتركة بين الحضارات، وفي ذات الوقت أمام «مضامين» خاصّة و«رسائل» متميّزة، تختلف فيها هذه «الأوعية» و«الأدوات» لدى كلّ حضارة من الحضارات

هنا سنجد أنفسنا -عند الفحص والتدقيق، وفي كثير جدًا من الحالات، وبإزاء العديد من المصطلحات- أمام «أوعية» عامّة و«أدوات» مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية والمذهبية، وفي ذات الوقت أمام «مضامين» خاصّة، و«رسائل» متميّزة، تختلف فيها وتتميّز بها هذه «الأوعية» العامّة و«الأدوات» المشتركة لدى أهل كلّ حضارة من الحضارات المتميّزة، وعند كلّ نسق أو مذهب أو عقيدة من الأنساق الفكرية والمذاهب الاجتماعية والعقائد الدينية، وخاصّة منها تلك التي امتلكت وتمتلك من السمات الخاصّة والقَسَمات المميّزة ما جعلها ويجعلها ذات مذهبية خاصة وطابع خاص.

وليس كضرب الأمثال سبيلٌ لجلاء هذا المعنى، وتأكيد صدق هذا المفهوم.

فمن المصطلحات الشائعة في ميدان «التشريع» القانوني -مثلاً- مصطلح: «الشارع»، يُوصف به من «يشرّع» القانون، فردًا كان أو جماعة؛ فواضع القانون «شارع» .. والمجالس النيابية التي تمثّل سلطان الأمّة في «تشريع» القوانين هي «هيئات تشريعية» «تشرّع» القوانين. «فالشارع» هنا و«مصدر التشريع» و«واضع الشريعة»: هو إنسانٌ، فردًا كان أو هيئةً تشريعيةً. هذا هو حال مصطلح «الشارع» و«التشريع» و«الشريعة» في ميدان «القانون»، فهل حقًّا «لا مشاحة» في هذا المصطلح الشائع، وفيما يحمل «وعاؤه» من «مضمون»؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال لن تكون واحدةً لدى أبناء كلّ الحضارات الإنسانية وفي إطار كلّ الأنساق الفكرية، بل ستكون هناك مشاحّة أكيدة وتامّة في هذا المصطلح ومضمونه، ففي حين لا تؤمن الحضارة الغربية بوجود «شارع» سوى الإنسان؛ انطلاقًا من النظرة المادية التي تنكر وجود الإله، أو التوجّه العلماني الذي يرفض التحكيم الإلهي في شؤون الدولة والاجتماع والعمران؛ فإنّ المسلم الذي يستمدّ عقيدته وأفكاره من الإسلام لا يفهم من مصطلح «شارع» سوى واضع الشريعة، وهو الله سبحانه وتعالى، وأنّ الشرع ليس إبداعًا إنسانيًا كالقانون، وإنّما هو من وضع إلهي نزل به الوحي؛ ومن ثمَّ فإنّ المسلم لا يعطي السلطةَ التشريعيةَ ووصفَ «الشارع» لغير الله سبحانه وتعالى، بخلاف سنّ القوانين التي تُفرّع عن أصول الشريعة؛ فهو من الفقه. فالله هو الشارع، والفقيه هو الإنسان.

ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها المؤلّف: مصطلح «اليسار» ويُقصد به التيار الاجتماعي الدالّ على استخدام الصراع الطبقي أداةً لتسويد طبقة الأجراء على طبقة الـمُلّاك؛ تمهيدًا لإلغاء التمايز الطبقي، وإلغاء سائر ألوان الملكية الخاصّة، ثم يأتي مَن يدعو إلى استخدام هذا المصطلح بدعوى أنّه «لا مشاحّة في الاصطلاح»، بل ويدعو إلى أسلمته وأسلمة مضمونه عندما يدعو إلى «اليسار الإسلامي»!

في حين أنّ اليسار في اللغة يعني: اليُسر والغنى، وأنّ للشريعة الإسلامية في المجال الاقتصادي قَسَمات مميزة، لا تنكر التمايز الاجتماعي في الأمّة إلى طبقات متميّزة؛ لكنّها تشترط تأسيس هذا التمايز على الأسباب والعوامل المشروعة، وتدعو إلى إبقاء العلاقات بين الطبقات محكومةً بإطار العدل، وفي حال اختلّ التوازن الاجتماعي فالحلّ ليس في

الصراع الطبقي بل «بالدفع الاجتماعي» الذي يُعيد تحريك المواقع الطبقية من درجة الظلم إلى درجة العدل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥٢] .. فالمشاحّة في هذا المصطلح واقعة في المعنى اللغوي وفي المضمون الاجتماعي أيضًا.

إذا كانت المصطلحات الغربيــة قد أصبحت جزءًا من واقعنا الفكري والثقافي الداخلي؛ فإنّ تحرير مضامين المصطلحات، واكتشاف مناطق الاتفاق ومناطق التمايز في معاني هذه المصطلحات مهمّة أساسية وأوليــة بالنسبة لأي حوار فكري حقيقي وجادّ

وإذا كانت المصطلحات الغربيــة قد أصبحت جزءًا من واقعنا الفكري والثقافي الداخلي؛ نظرًا لنجاحات التغريب في حياتنا الفكرية والثقافية والإعلامية؛ فإنّ تحرير مضامين المصطلحات، واكتشاف مناطق الاتفاق ومناطق التمايز في معاني ومفاهيم هذه المصطلحات -وخصوصًا تلك المصطلحات الأكثر شيوعًا، والأكثر إثارة للجدل بين تيارات الفكر في عصرنا وفي واقعنا- هو مهمّة أساسية وأوليــة بالنسبة لأي حوار فكري حقيقي وجادّ؛ ينقذ حياتنا الفكرية من خطر الاستقطاب الحــادّ، ويُوجد «لغة فكرية واحدة» بين الفرقاء المتحاورين.

تحرير مضامين المصطلحات: شرط الفهم المشترك والحوار:

إنّ أغلب حواراتنا هي «ضحايا» بائسة للفوضى الشائعة في مضامين «المصطلحات»، ولكي يفهمَ كلٌّ منّا الآخر، ولتحديدِ مناطق الاتفاق ومناطق الاختلاف، ولتنظيمِ حوار موضوعي وجاد وبنّاء: علينا أن نبدأ بتحرير وتحديد مضامين ومفاهيم المصطلحات.

وقد حرّر المؤلف في كتابه خمسةً وثلاثين مصطلحًا، هي:

١. العلمانية.
٢. الأصولية.
٣. المادّية.
٤. التنوير.
٥. التنصير.
٦. الاستخلاف.
٧. الشريعة.
٨. الحاكميّة.
٩. حقوق الإنسان.
١٠. الحرّية.
١١. العدل.
١٢. التكافل.
١٣. المساواة.
١٤. الذمّة.
١٥. الشورى.
١٦. الديمقراطيّة.
١٧. الحزب.
١٨. الإصلاح.
١٩. الثورة.
٢٠. الجهاد.
٢١. العقلانية.
٢٢. الاجتهاد.
٢٣. التجديد.
٢٤. التأويل.
٢٥. الإبداع.
٢٦. الهويّة.
٢٧. الوسطية.
٢٨. الوطنية.
٢٩. الأشعرية.
٣٠. السلفية.
٣١. أهل الحديث.
٣٢. الشعبية.
٣٣. الغنوصية.
٣٤. الباطنية
٣٥. ولاية الفقيه.

إنّ أغلب حواراتنا هي «ضحايا» بائسة للفوضى الشائعة في مضامين «المصطلحات»، ولكي يفهمَ كلٌّ منّا الآخر، ولتنظيمِ حوار موضوعي وجاد وبنّاء: علينا أن نبدأ بتحرير وتحديد مضامين ومفاهيم المصطلحات

وسوف نوجز في هذه القراءة الحديثَ عن بعضها.

١- الأصولية:

مصطلح غربي النشأة ويعني تفسير الإنجيل والنصوص الدينية تفسيرًا حرفيًّا لا يدخل فيه التأويل، أمّا في المفهوم العربي والإسلامي فإنّنا لا نجد ذكرًا لهذه النسبة، وإنّما تبلورت في الحضارة الإسلامية علومٌ كأصول الدين وأصول الفقه، وهكذا خلا تراث الإسلام والعربية من مصطلح الأصولية.

ولكن هل وُجد في تيارات الفكر الإسلامي تيارٌ وقف من النصوص موقف الأصوليين الغربيين فقال بالتفسير الحرفي للقرآن والسنة، ورفض كل ألوان المجاز والتأويل لأيّ نصٍّ مهما بدا من تعارضِ ظاهرِه مع براهين العقل؟

إنّ حقيقةَ الجواب على هذا السؤال هي النفي القاطع، فكلّ تيارات الفكر الإسلامي قبلوا بالمجاز والتأويل لطائفة كبيرة من النصوص، ولكن اختلفوا في الاقتصاد أو التوغّل فيه.

فالأصولية في الغرب تعني: «أهل الجمود»، بينما هو في التراث الإسلامي عنوان على: «أهل التجديد والاستدلال والاستنباط».

٢- التنوير:

هو مصطلح أوربي النشأة والمضمون والإيحاءات، ساد في مرحلة تاريخية من مراحل الفكر الأوربي الحديث. وهو يشير إلى: «حركة فلسفية تعتدّ بالعقل والاستقلال بالرأي، وتؤمن بأثر الأخلاق، وتقوم على فكرة التقدّم والتحرّر من السلطة والتقاليد»، كما جاء في تعريف مجمع اللغة العربية. والمقصود بالسلطة والتقاليد: السلطة الدينية الكنسية وتقاليدها التي جمّدت واقع الحياة ونظريات العلوم.

وقد قاد هذا التحرّر غالبَ المفكّرين التنويريين إلى القطيعة مع الموروث الديني ورفض استلهامه أو التزامه أو الانطلاق منه، وبالتالي: رفض فكرة الإله، والنزوع إلى الكفر والإلحاد، وتمجيد العقل وعبادته.

أمّا في المصطلح العربي: فإنّ التنوير هو وقت بزوغ أشعة نور الوحي، فالقرآن والإسلام والرسول ﷺ والحكمة والصلاة نور، والمؤمن مستنير بذلك كله، وله تنويره الإسلامي الخاص.

٣- الاستخلاف:

مصدرٌ معناه اتخاذ الخليفة؛ فالذي يستخلف إنساناً في أمر ما لا بدّ وأن يحدّد له نطاق استخلافه والمعالم الأساسية التي يوصيه بالتزامها؛ كي تكون إطارًا لحرّيته وهو ينهض بمهام هذا الاستخلاف، فتكون مكانة الخليفة عندئذ وسطًا لا تبلغ مكانة مَن استخلفه علوًّا، ولا تهبط إلى درجة الذي لم يحظَ بالتوكيل والاستخلاف في الانخفاض.

وبمعنى الاستخلاف هذا تتحدد مكانة الإنسان في هذا الوجود، المفوض بعمارة الأرض، الحرّ المختار المكلّف المسؤول؛ فهذه شروطٌ تمكّنه من النهوض بمهامّه، وأيضًا المحكومة حرّيته بضوابط الشريعة الإلهية التي تمثّل معالم وضوابط هذا الاستخلاف.

وعن هذا المعنى للاستخلاف: انحرفت الفلسفات والحضارات المادّية، عندما ألّهت الإنسان كما فعل الرومان بعيسى عليه السلام، أو أنسنت الإله؛ فزعمت حلوله وتجسّده في الإنسان. وهذا الانحراف جعل الإنسان في الحضارة المادّية دونما قيود أو حدود من شريعة السماء.

وعلى النقيض من ذلك: جاءت بعض فلسفات الديانات الوضعية لتنفي عن الإنسان أيّة حرّية أو قدرة أو استطاعة؛ فرأته حقيرًا فانيًا؛ فكان هذا الغلو في تكبيل الإنسان وتهميشه.

وبين هاتين الرؤيتين «المادية والباطنية» تقف فلسفة الاستخلاف الإسلامية؛ فتجعل الإنسانَ في هذا الكون أفضلَ خلقِ الله، وعبدًا له، وخليفةً لعمران الأرض، محكومةً حرّياته وقدراته ببنود عقد وعهد الاستخلاف «شريعة الله سبحانه».

وآثار هذه الاختلافات جليّة في جميع نواحي الاستخلاف، كسُبل المعرفة الإنسانية، والعلاقة بين الدين والدولة، والثروات والأموال.

٤- الحاكمية:

للأمة الإسلامية شريعة إلهية واحدة، واجبة التحكيم؛ لأنّها حكم الله وحاكميته في هذه الأمة الخاتمة.

لكن هل يعني حكم الله بحاكمية الشريعة الإسلامية الواحدة، انتفاء الحاكمية البشرية في فقه الأحكام والفتاوى؟ أم أنّ وحدة الشريعة قد مثلت الجامع الإلهي في الشريعة الذي يتّسع لحاكميات بشرية استخلفها الله سبحانه لتتعدد أحكامها وفتاواها بتعدد وتنوع المصالح والوقائع والعادات والأعراف، وما يقتضيه هذا التعدد والتنوّع من تعددية في اجتهادات الحكّام (القضاة) والمفتين؟

إن تعدد الحاكميات البشرية في الأحكام واختلاف الاجتهادات الإنسانية في الفتاوى، وذلك في إطار كلّيات وحدود ومبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية الواحدة حقيقة من حقائق الشرع الإسلامي التي لم يختلف عليها أحد من أهل العلم بالإسلام.

ولكن عوامّ المقلدين ينكرون وجود حاكمية بشرية في إطار حاكمية الشريعة الإلهية، وينكرون تعدّدية الحاكميات الإسلامية في إطار الشريعة الواحدة. وقد بدأت شبهات هذا الفريق في الثقافة الإسلامية بصيحة الخوارج في معسكر علي رضي الله عنه إبّان الفتنة: «لا حكم إلّا لله».

إنّ حكم الشريعة -حتى عندما يرد في نصّ قطعي الدلالة والثبوت- فإنّه لا يمنع التعدّدية في فقه النصّ وفهمه، ومن ثَمّ التعدّدية في استنباط الحكم من هذا النص، والتعدّدية في نظام الصياغة لهذا الحكم صياغة قانونية . . وذلك فضلاً عن التعدّدية في كيفية تنزيل هذا الحكم -بعد فهمه واستنباطه وصياغته- على الوقائع والحالات، خصوصًا عندما تكون هذه الوقائع مختلفة باختلاف المصالح والعادات والأعراف ومتغيّرات الزمان والمكان. أمّا إذا كان النصّ الشرعي ظنّي الثبوت، أو ظنّي الدلالة، أو ظنّيًا في الثبوت والدلالة معًا، فإنّ اختلاف الأفهام وتعدّد الاجتهادات، وتنوّع الأحكام المستنبطة منه تتسع فيها وأمامها الميادين والآفاق.

وهذه التعدّديّة في الحاكميات البشرية في إطار وحدة الشريعة تتبدّى أكثر ما تتبدّى في السياسة الشرعية التي هي تدابير إسلامية وفقه إسلامي، تحكمها قواعد الموازنة بين المصالح والمفاسد والتي لم ترد فيها حدود ثوابت؛ لخروجها من دائرة الثوابت إلى دائرة المتغيرات، ولخروجها -من باب أولى- عن دائرة أصول الاعتقاد.

> **تجاوزت الحرية في النظرة الإسلامية نطاق الفرد، إلى النطاق الاجتماعي للأمم والجماعات، ففي التكاليف الإسلامية فروض عينية على الفرد تستلزم حرية هذا الفرد المكلّف، وفروض كفائية تجب على الأمّة والجماعة، وتستلزم حرية اجتماعية للأمّة والجماعة**

٥- الحرية:

وهي ضد العبودية، وتعني الإباحة التي تمكّن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته في أي ميدان من ميادين الفعل وبأي لون من ألوان التعبير.

وإفراد الله بالألوهية هي جوهر تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وهي السبيل إلى تحريره من كلّ أنواع الطواغيت المادية التي تستلب منه الإرادة والحرّية والاختيار.

وقد ارتبطت الحرية -في النظرة الإسلامية- بالمسؤولية. وإذا كان «التكليف» -وهو عنوان المسؤولية في الفقه الإسلامي- فرعًا عن «الحرّية» .. فلقد تجاوزت الحرية في النظرة الإسلامية نطاق الفرد، إلى النطاق الاجتماعي للأمم والجماعات، ففي التكاليف الإسلامية فروض عينية على الفرد تستلزم حرية هذا الفرد المكلّف، وفروض كفائية تجب على الأمّة والجماعة، وتستلزم حرية اجتماعية للأمّة والجماعة.

وقد ظهر الإسلام ونظام الرقّ يمثّل ركيزة من ركائز النظامين الاجتماعي والاقتصادي لعالم ذلك التاريخ، مع كثرة منابعه من حروب عدوانية وقطع طريق وغيرها، فلما قامت دولة الإسلام قطع هذه المنابع التي تمدّ نهر الرقيق بالجديد، ووسع مصباته عندما حث على عتق الأرقاء، وجَعَل العديد من الكفّارات هي تحرير الرقبة.

فالحرية في الإسلام هي حرّية الخليفة الذي وُجِد لعبادة الله وعمارة الأرض، وليست حرّية سيد الكون الذي يتصرّف وفق أهوائه ورغباته، بل هي محكومة بإطار ونطاق وثوابت ومقاصد الشريعة التي هي عقد وعهد الاستخلاف.

٦- المساواة:

ويقصد بها: تشابه المكانة الاجتماعية والحقوقية والمسؤوليات والفرص للناس في المجتمع على النحو الذي تقوم فيه الحالة المتماثلة فيما بينهم.

ولقد شاع الحديث عن المساواة في فكر الحضارة الغربية منذ أن أُعلنت مبادئ حقوق الإنسان، ودخلت المساواة في الكثير من الدساتير والمواثيق الدولية، وفي ميادين متعدّة كالسياسية والاقتصادية والمدنية والاجتماعية، ويجري الحديث عنها في علاقات المواطنين الداخلية، وبين الأمم والدول، وبين الأجناس والشعوب.

وبعض المذاهب والفلسفات تصوّرت إمكانية تحقيق التماثل الكامل والتسوية الحقيقية بين الناس في كلّ الميادين، وبالتحديد في الميادين الاقتصادية والاجتماعية، لكن هذه التصوّرات قد استعصت على الممارسة الواقعية.

ولعلّ أقرب التصوّرات إلى الدقّة والواقعية:

المساواة بين الناس أمام القانون؛ فهي ضرورية وواجبة التطبيق.

والمساواة في تكافؤ الفرص أمام سائر المواطنين وسائر الأمم والقوميات، وسائر الدول، وهي ممكنة وهدف يستحق الجهاد لتحقيقه في الإطار الاجتماعي الدولي على السواء.

كيفية التعامل مع المصطلحات باعتبارها أوعية تحمل مضامين

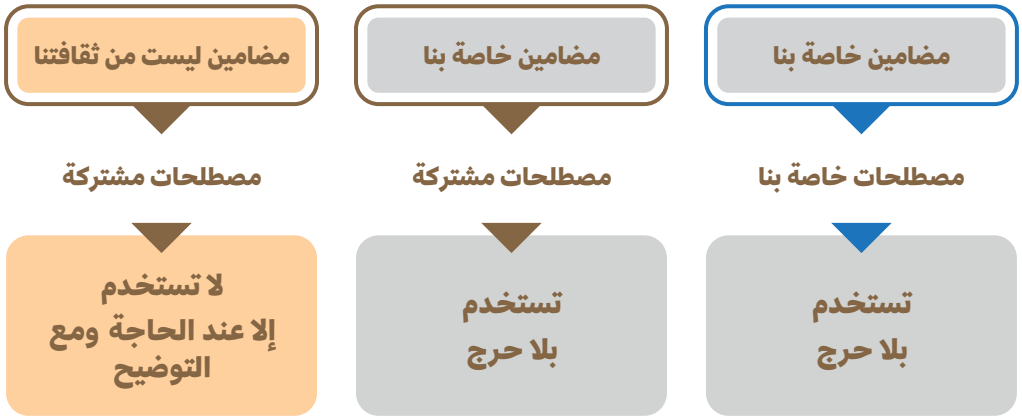

أما المساواة فيما بعد الفرص المتكافئة فإنّها التي تعدّ خيالاً وحلمًا يستعصي على التحقيق، ويناقض السنن والقوانين الحاكمة لسير الاجتماع والعمران؛ وذلك لتفاوت القدرات بين الناس، وعند تحقيق المساواة في تكافؤ الفرص؛ فإنّ ذلك لا يثمر بالضرورة المساواة في أنصبة الناس وحظوظهم من هذه الفرص.

إن إسهام كل عضو من الأعضاء في حياة الجسد ليس متماثلاً ولا متساويًا، وحظّ كلّ عضو من رصيد حياة الجسد وحيويته ليس متماثلاً ولا متساويًا؛ لأنّ علاقة كلّ الأعضاء بكلّ الجسد هي علاقة توازن وليست علاقة مساواة، فبالتوازن يصبح كلّ عضو فاعلاً ومنفعلاً ومتفاعلاً مع الآخرين، ولعلّ المساواة المطلقة هي التي قادت المجتمعات التي طمعت في تحقيقها إلى الإخفاق.

٧- الحزب:

وهو كل طائفة جمعهم الاتجاه إلى غرض واحد، سياسيًا كان أو غير سياسي.

وفي الواقع المعاصر: هو التنظيم الذي يجمع جماعة من الأفراد تشترك في تصوّر واحد لبعض المسائل السياسية، وتكوّن رأيًا انتخابيًا واحدًا.

ومصطلح «الحزب» في النظرة الإسلامية ليس مرفوضًا لذاته وبإطلاق، وليس مقبولاً لذاته وبإطلاق؛ لأنّ معيار القبول أو الرفض متعلّق بمضمون المبادئ والأهداف والمقاصد التي قام عليها الحزب.

أما المشروعية الإسلامية للتنظيم والتحزب فهي مرتكزة على الإيمان بمشروعية التعدّد في الآراء والتوجّهات. والتجربة السياسية لدولة الإسلام الأولى قد شهدت من المؤسسات ما يشبه التمايز التنظيمي –ولا نقول الحزبي– على نحو من الأنحاء، كهيئة المهاجرين الأولين التي كانت تنظيمًا له اختصاصات دستورية في الخلافة والدولة وشؤون المجتمع الإسلامي بوصفها هيئة الأمراء. وهيئة النقباء الاثني عشر الذين عقدوا مع رسول الله ﷺ عقد تأسيس الدولة الإسلامية في بيعة العقبة بوصفهم الوزراء.

وفي عصرنا الحديث: وبعد طيّ صفحة الخلافة العثمانية، واكتمال الاحتواء الغربي للعالم الإسلامي، وانتشار التنظيم الحزبي كنمط شائع في حياة العرب المسلمين؛ أصبح من متطلّبات اليقظة الإسلامية للدفاع عن الهوية الإسلامية: اتخاذُ التنظيم والانتظام في الجماعات والأحزاب والجمعيات سبيلاً وأداةً مهمّةً لتحقيق مقاصد البعث الحضاري؛ استئنافًا للنهوض ومواجهة للتحدّيات.

ميادين الثورة كثيرة، فإذا بحثنا عن التغيير الشامل والجذري الذي ينتقل بالإنسان إلى طور جديد أكثر تقدّمًا؛ فسنجد في الاجتهاد ثورة على التقليد، وفي الجهاد ثورة على الاستسلام، وفي التجديد ثورة على الجمود، وفي الإبداع ثورة على المحاكاة

٨- الثورة:

هي التغيير الجذري المفاجئ في الأوضاع السياسية والاجتماعية بوسائل تخرج عن النظام المألوف، ولا تخلو عادة من عُنف. والتعريف الذي اختاره المؤلّف: العلم الذي يوضع في الممارسة والتطبيق، من أجل تغيير نظم ومجتمعات الجَور والضعف والفساد تغييرًا جذريًا شاملاً، والانتقال بها من مرحلة تطويرية معيّنة إلى أخرى أقلّ قيودًا وأكثر حريّة وأبعد في التقدّم.

والثورة في علوم الاجتماع الغربية هي غير «الإصلاح»؛ لأنّ الإصلاح في العلوم الغربية يعني الترقيع والتغيير الجزئي والسطحي، أما في الاصطلاح الإسلامي فإنّ المغايرة بين الثورة والإصلاح غير قائمة، فإنّ الإصلاح هو الآخَر تغيير شامل وجذري وعميق كالثورة تمامًا، والتمايز بينهما في الأدوات التي يتم بها التغيير.

أمّا مشروعية الثورة كسبيل لتغيير نظم الجَور والضعف والفساد: فإنّها قضية اختلف فيها علماء الإسلام، فهم لم يختلفوا في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنْ قام الخلاف بينهم حول استخدام العنف (السيف) في التغير، لا كراهةً للتغير، وإنّما لاختلافهم في الموازنة بين ايجابيات وسلبيات استخدام العنف في التغير.

وميادين الثورة كثيرة، فنحن إذا بحثنا عن التغيير الشامل والجذري الذي ينتقل بالإنسان إلى طور جديد أكثر تقدّمًا؛ فسنجد في الاجتهاد ثورة على التقليد، وفي الجهاد ثورة على الاستسلام، وفي التجديد ثورة على الجمود، وفي الإبداع ثورة على المحاكاة، وفي التقدّم ثورة على الرجعية والاستبداد، وفي العقلانية ثورة على ظاهرية وحرفية النصوصيين.

٩- الإبداع:

إنّ بعض الناس -أحسنوا الظنّ بالإسلام أو أساؤوا- قد انطلقوا إلى الاتفاق على موقف خاطئ من رأي الإسلام في الإبداع؛ استنادًا إلى فهمهم لحديث الرسول ﷺ الذي يقول: (إنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النَّارِ)[1]؛ فظنّوا أنّ الإسلام يحرّم كلّ إبداع، دونما تمييز بين إبداع يخالف الكتاب والسنّة، وبين الإبداع المحمود في الفكر الإنساني والصناعات العمرانية! بل ودون وعي بأنّ اشتمال الكتاب والسنّة على أفضل الحديث والهدي لا يعني نفي الفضل عن جميع ما لم يَرِد فيهما.

إنّ الإبداع -كما يُعرّفه علماء مصطلحات القرآن- هو: إنشاء صنعة جديدة بلا احتذاء واقتداء. وعلماء الاصطلاحات في حضارتنا يميّزون بين البدعة في الدين التي هي ضلالة؛ لكونها مخالفة لما جاء في الكتاب والسنّة، وبين الإبداع والاختراع في الفكر الإنساني والأمور المحمودة، ولم يقل أحد من العلماء بإغلاق أبواب الإبداع فيه؛ فأبواب الإبداع والابتداع كانت وستظل مفتوحة أبدًا.

وإذا كانت عمارة الأرض هي المقاصد العظمى من وراء استخلاف الله للإنسان، فإنّ الإبداع الإنساني في سائر ميادين العمران البشري داخل في السبل والآليات التي لا بدّ منها لتحقيق مقاصد هذا الاستخلاف، شريطة ألّا يخالف هذا الإبداع دينًا ثابتًا في القرآن أو السنّة.

١٠- الوطنية:

هي المشاعر والروابط الفطرية التي تنمو بالاكتساب لتشدّ الإنسان إلى الوطن الذي استوطنه.

والانتماء الأوّل والأكبر والأساس بالنسبة للمسلم هو إلى الإسلام وأمّته وإلى دار الإسلام وحضارته، ولا يكون تخيير المسلم بين الانتماء للإسلام والانتماء لغيره من وطن أو عشيرة وغيرهما إلّا في حالات قيام التعارض أو التناقض أو التضادّ بين الإسلام والانتماءات الأخرى. أمّا إذا اتّسقت دوائر الانتماء في فكرية الإنسان وتكاملت في ممارساته الحياتية؛ فلن يكون هناك تناقض في الفكر والعمل الإسلاميين بين كلّ دوائر الانتماء الفكري للإنسان.

(١) أخرجه النسائي (١٥٧٨).

ولأنّ الإسلام منهاج شامل؛ فإنّ إقامته دينًا لا تتأتى إلا في واقع ووطن، وهذا الواقع والوطن لن يكون إسلاميًا إلا إذا أصبح الانتماء الوطني فيه بُعدًا من أبعاد الانتماء الإسلامي العام، ومن هنا تأتي ضرورة الوطن لإقامة «دنيا الإسلام» وعمرانه، وضرورة الدين؛ ليكون الوطن إسلاميًا وتتحقّق إسلامية عمرانه.

إذا كانت عمارة الأرض أهم المقاصد العظمى من وراء استخلاف الله للإنسان، فإنّ الإبداع الإنساني في سائر ميادين العمران البشري داخل في السبل والآليات التي لا بدّ منها لتحقيق مقاصد هذا الاستخلاف، شريطة ألّ يخالف هذا الإبداع دينًا ثابتًا في القرآن أو السنّة

وفي حين وقفت مذاهب وفلسفات في حدود الوطن عند «حدود العِرق» أو «اللغة» أو «جغرافيا الإقليم» فإنّ الإسلام قد رفض هذه المعايير؛ فالوطن والوطنية -في ظلّ الانتماء الإسلامي- لا يقف عند حدود وطن بعينه ولا يتقيّد بوطنية من الوطنيات دون سواها.

وقد جعل الإسلام الوطنية -التي تحفظ استقلال الوطن- قرين الحياة ومعادلها، كما جعل هذه الوطنية قرين حرّية الدعوة إلى الدين، وجعل الدفاع عن الوطن فريضة جهادية.

والحقّ أنّ كلّ حركات التحرير الوطني الحديثة في عالم الإسلام قد نشأت إسلامية، أو وثيقة الصلة بالإسلام وعقيدة الجهاد فيه؛ فالوطنية في وجدان المسلمين «لم تخرج عن كونها جزءًا من تعاليم الإسلام».

أخيرًا ..

لم تأت هذه القراءة على جميع الكتاب، واكتفت بباقةٍ منتقاةٍ من المصطلحات، يُظنُّ أنها أكثر تداولًا وتأثيرًا من غيرها، إلى جانب القواعدِ والأُسُس التي وضعها المؤلِّف للتعامل مع المصطلحات الغربية التي غزتنا في ثقافتنا وإعلامنا ومناهجنا اليوم، وكيفية التمييز في المضامين التي تحملها بين تراثنا وما يراد من نشر هذه المصطلحات بمفهومها الغربي المعاصر، وللقارئ الكريم أن يستزيد من الكتاب للإحاطة بفكرة المؤلف، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

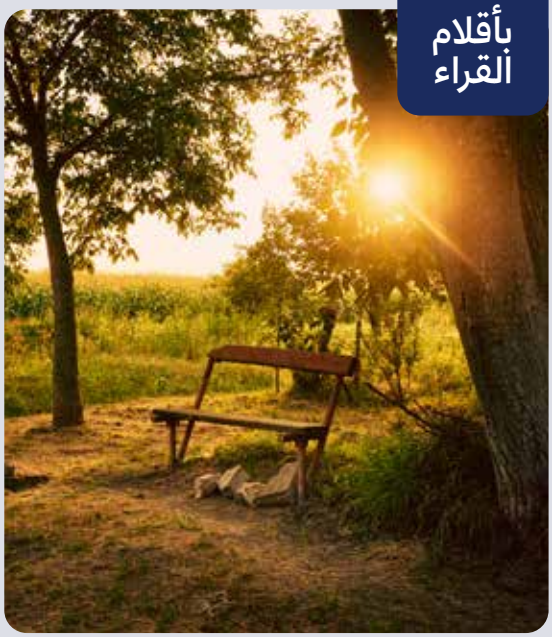

التوكل.. كن مستعدًا لهبَّات القدر

أ. سليم عدنان عطفة

الصيد الثمين يأتي لمن كرَّس جهده بالتمرين.. فكن مستعدًّا دائمًا لاقتناص الفرص فإنَّها تعدو كالفهد وتقف أمام مرماك لحظات، فإن كُنت من الموفَّقين لاقتناصها فهي لك، وإلا ستعدو مسرعة لتستريح في مرمى هدف صياد متمكن فيقنصها ويفوز.

هكذا هي الحياة.. رحلة صيد في أرض الله الواسعة، معظمنا لا يدرك ذلك إلا متأخرًا فيندم ويُحبَط أو يعزم فيلملم شتات أمره ويرمي ما فاته خلف ظهره أو يركمه فيستند عليه ليثِبَ من جديد.. والموفَّقون من اشتدَّت سواعدهم فتيانًا على أقواس الكهلة، ثم أعادوا لها رونقها وقوَّتها وزادوا من شدَّتها ليرموا بها ويفوزوا، ولا ضير في اللحاق بركب الصيد متأخرًا فذلك خير من التذلُّل على موائد المهرة؛ فالفرص لا تأتي مرة واحدة في العمر كما زُعم وإنما تأتي بأشكال وأوقات مختلفة؛ فتارة منحة وتارة محنة، ومرة زرافات وأخرى فرادى، والفَطِنُ من هيأ القوس وشدَّ الوتر وراقب طريدته وانتظر، فإذا ما لاحت له أطلق السهم وقطف الثمر.

أهل اليقظة

أ. أحمد أرسلان

ذكر ابن عثيمين في شرحه لحديث (إنما الأعمال بالنيات) أخرجه البخاري، أنَّ المؤمن يؤجر على العمل حتى لو لم يكن من العبادات إن نوى به نيةً صالحة، لقوله ﷺ: (واعلم أنك لن تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل في فِيْ امرَأتِك) أخرجه البخاري ومسلم، أي: اللقمة في فم زوجتك.

ولهذا قال بعض أهل العلم: عباداتُ أهل الغفلة عادات، وعاداتُ أهل اليقظة عبادات.

ما السر في كونِ عاداتِ (أهل اليقظة) عبادات؟ هو والله أعلم: توجُّه القلب نحو الله وإقبالُهُ عليه في كل شؤونه، حتى في عاداته اليومية.

ليس السرُّ في اللقمة التي رُفعت لفم الزوجة ولا في لبس النظيف قبل صلاة الجمعة، السرُّ في أنَّ القلب استحضر الحاجة لله ورحمته في كل حال، فنوى التقرُّب إلى الله حتى في عاداته اليومية، وضمَّها لسياق العبودية لله، وهذا التوجُّه القلبيُّ لله في معظم اليوم له أكبر الأثر في فِعلِ الخيرات في كلِّ حين واجتناب النواهي، فكيف يعصي أو يُصرُّ على معصيةٍ من كان من أهل اليقظة؟

الصديق الصدوق

أ. تسنيم خليل

لا يستحقُّ الصديق أن تسميه صديقًا إلا إذا وجدته يحرص عليك ويحبُّك، ويشعر بك حتى بدون أن تتكلَّم، وتجده يقف معك بكل الظروف والمواقف وإن كان بعيدًا.

عندما تفرح يفرح لك بلا حسدٍ ولا غِلّ، تلحظُ ذلك من لمعة عينيه وتعابير وجهه وابتسامته. وإذا حزنت أو مررت بضيق يحزن لأجلك ويقف بجانبك ليساندك، ولا يتركك في منتصف الطريق.

الصداقة الحقيقية هي بمنزلة الروح للجسد، والنبض للقلب، والبلسم للجرح، وهي الألوان التي تزيد اللوحة جمالاً وجاذبية وروعة، وهي كالمظلة إذا اشتد المطر.

علمتني الحياة أن الصديق يقف المواقف الصادقة ولا يكتفي بالكلام المعسول، ولا يتوارى عند الحاجة. وتعلمت أن الصديق الذي لا تجده بقربك عند حزنك أو حاجتك لا يسمى صديقًا، ولست بحاجة له وقت فرحك.

الصديق هو ذلك الشخص الذي إذا فرحت تسرع إليه لتخبره وأنت تعلم أنه سيفرح لفرحك، وإذا حزنت تسند رأسك إلى كتفه ليحمل معك وعنك ما يثقل عليك وأنت تعلم أنه سيفعلها. فمن كان لديه ذلك الصديق فليتمسك به لأنه أصبح جوهرة نادرة.

صبرًا إنَّ موعدنا الجنة

أ. ناجي باجري

استقبل حياتك مُنشرحَ الصدر مطمئنًا بقضاء الله وقَدَره.. فإن أصابتك سراءُ شكرتَ فكان خيرًا لك، وإن أصابتك ضراءُ صبرتَ فكان خيرًا لك، وتذكَّر بأنَّ جزاء الصابرين كبير ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ولا عجب أن يبشِّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم آلَ ياسرٍ بالجنة وهم يعذَّبون ويقول لهم: (صبرًا يا آل ياسرٍ فإن موعدَكم الجنة) أخرجه الحاكم.

تذكر صبرك ..

- عندما تتوضأ بالماء البارد وهو يبلل وجهك، ثم تمشي للصلاة في ظلمات الليل وسكونه وبرده.
- عند غضك لبصرك في زمن الفتن تعبدًا لله وخوفًا منه في الجمع أو حين لا يراك أحد.
- عند ابتسامتك لمن حولك رغم ابتلائك وحزنك.
- عند استناد أبيك وأمك على كتفك في كبرهما.

تذكر هذه الأمور وغيرها من الأعمال التي يُحبُّها الله.. أفتظنُّ أنَّه لا أحد يعلم جهادك وصبرك؟! فالله يراك ويكتب أجر اجتهادك. وهل تظن أنك شخص عادي وأنت الذي اختصك الله بهذه الأمور؟

تذكّر بأن وراء كل صبر صبرته لحظات جميلة تستحق الانتظار ستجزى بها اليوم أو غدًا.

ادخلوا عليهم الباب

د.خير الله طالب

بعد نجاتهم من فرعون كانوا في صحراء سيناء، وكتب الله لهم الأرض المقدسة، فحتَّم موسى عليه السلام على دخولها منصورين، وحذَّرهم الردَّة والخسارة، لكنَّ عزيمتهم خارت لما علموا أنَّ أهلها «جبارين» أقوياء، فأبرموا أمرهم أن لن يدخلوها أبدًا حتى يخرج أهلُها منها، فحكم الله عليهم بالتِّيه أربعين سنة، وحرمها عليهم، حتى كان الجيل التالي.

لقد تضخَّمت قوة الأعداء في نفوسهم فأعمت قلوبهم عن رؤية قدرة الله الجبار العظيم المنتقم القاهر فوق عباده عز وجل، ولم تنفعهم معاينتهم هلاكَ الفراعنةِ الأشدِّ من أولئك، ولا كونهم في الصحراء، ولا إغراء خيرات الأرض المقدسة، ولم يعبؤوا بوعد الله لهم.. كلُّ ذلك لم يتغلَّب على خوفهم الذي أكل قلوبهم بقدر ما سكن فيها.

يتولَّد الخوف من الجهل بالحقائق، ويتشكَّل على صور قد تفوق قسوتُها العدوَّ الجاثم، بدليل حصول الثورة عليه، ثم خضوع الثائرين لتصوُّرات وارتباطات وتوقُّعاتٍ وأمنياتٍ وأوهامٍ ووعودٍ وارتهاناتٍ وشهواتٍ ونزواتٍ تكبِّل أصحابها عن بناء النموذج المنشود، وترهنهم من جديد لمثل النموذج الذي ثاروا عليه. ثم يلتحف الخائفون بذرائع شتى خجلاً من التصريح بمخاوفهم، بغير وعي في الغالب. وقد يلتحق بالمخاوف عوائق نفسية كثيرة عن المبادرة والإقدام. وتكون النتيجة البحث عن الحلول السهلة ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وإنما تنكسر القيود الثقيلة بأصحاب الشجاعة الممتلئة قلوبهم خوفًا من الله تعالى، حتى يخرج الخوف منهم فيحلّ في قلوب أعدائهم منهم، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، لقد تنعموا بالخوف الدافع، كما تعذب أولئك بالخوف المقعد. وقد كان زادهم الإيمان والتوكل، حذرين من أن تعجبهم أنفسهم فلا تغني عنهم شيئًا، ثم يلبسهم الخوف القاتل.

تتجلى مصداقية الشجاعة الإيمانية في: مواجهة الموقف الذي يبدأ بمجابهة الخوف والخائفين: (لا يَمْنَعَنَّ أحدَكم رهبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا رَآهُ أو شهدهُ، فإنه لا يقرِّبُ مِن أَجَلٍ ولا يُباعدُ مِن رِزقٍ)[1].

الكلمة الصادقة الشجاعة سببٌ تدخل به باب العمل، وسهمٌ تضرب به في ساحة النزال، ثم يفتحُ لك الله بعده ما يشاء. وما عَرَفَ الناس نهضةً بلا سبب، ولا كلَّفهم الله ما لا يستطيعون، وما عليهم إلا تحرير قُدرتهم الحقيقية، والتخلُّص من الذرائع التي يتستَّر وراءها الخوف بلبوس الخجل والأدب وانتظار الكبار، بينما تتبخَّر القيم في صحراء التيه عن فريضة الوقت.

ما القصة إلا للعبرة بأنَّ النصر -ومثله الرزق ونحوه- ثورة نفسية تُنفض بها أثقالُ الخوف، فيُطرح بها اللحاف، فينتصب الإنسان قائمًا في ثوان ثلاث، وتبدأ المسيرة.

ولله درّ شباب وفتيان في ريعان العمر تقدموا الصفوف.

ولله درّ كهول نفضوا عنهم مخاوفَ التجديد وآصار الارتباطات المعيقة والتصورات المترهلة فعرضوا شأنهم كلَّه على كتاب الله وأقلعوا عن أخطائهم بشجاعة، واعترفوا للشباب بتقدُّمهم، واعتذروا لهم عن تأخُّرهم، ثم (دخلوا الباب) لإكمال المسيرة سويًا.

ولله دعاةٌ انتصروا على قيودٍ اصطنعوها وأُطُرٍ حجزت بعضَهم عن محاسن بعض، وأغفلتهم عن محاسن مجتمعهم، وألبستهم الخوف على أنفسهم باسم الخوف على الدين والإسلام! فعلموا أنَّ (العاملين للإسلام) والباذلين له أوسع من الجماعات، وأرحب من التصنيفات، وأن ثمة طاقات مبدعة تعاني من قيادات مترهلة، وأن الجميع بحاجة إلى (دخول الباب)، بانطلاقة بلا انتظار، وانتفاضة بلا عثار.

نتيجة الخوف حتمية، فمن خاف غير الله فزع من ظله، وتاه في صحراء غيه، وتعلق بوعود عدوه، فما يصلح لثورة ولا نهضة ولا تنمية. ومن خاف اللهَ خافه كلُّ شيء، فما رأى بينه وبين النصر إلا (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ).

(١) أخرجه أحمد (١١٤٧٤).

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

هيئة الشام الإسلامية

بمناسبة مرور عامين على انطلاقة مجلة رواء

يطيب لأسرة التحرير أن تهنئكم، وترجو أن تكون المجلة
قدمت لكم مادة فكرية تليق بكم، وأسهمت في إثراء المحتوى الثقافي في الساحة

وهي بهذا تجدد الدعوة للكتاب والمفكرين للمشاركة في صفحات رواء

www.islamicsham.org

islamicsham2 islamicsham